قراءة نقدية في كتب السيرة النبوية

إعداد
أصلان عبد السلام حسن

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

الاخراج الفنى : ماجده البنا

تصميم الغلاف : اسامه سعيد

شكر واجب

أشكر السيد الأستاذ الدكتور محمد عمارة مراجعته لكتابي السابق « زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم » والتوصية بنشره كما أشكر له مراجعته لهذا الكتاب ايضا والتوصية بنشره « لما له من فائدة لجمهور القراء ولعامة المثقفين ، بل ولقطاع من خاصتهم ، الذين لا جلد لهم على تحصيل مؤهلات النظرة النقدية فى مصادر التاريخ والسيرة التى كتبها القدماء ، ولا وقت لهم لجمع الآراء الناقدة التى تناثرت فى كتب حديثة كثيرة ـ الناقدة لما فى هذه المصادر القديمة من مبالغات واسرائيليات » كما قال سيادته . هذا ومن الحق ايضا أن نقرر بأنه صاحب الفضل فى عنونة الكتاب هذا العنوان الذى يتملى به .

والله أسأل أن يمتعنا بعلمه ، وأن يمتعه بالصحة ويفيض عليه من نعمائه ..

اصلان عبد السلام حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ترك لنا أجدادنا تراثا ضخما مكتوبا فى شتى العلوم والفنون لا مثيل له فى أمة من الأمم ، وخاصة ما كتبوه عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم ـ للأسف الشـــديد ـ أخطأوا كثيرا فيما كتبوه ، فلقد قبل بعض كتاب السيرة القصص الاسرائيلى ، والقصص الموضوع الذى يجافى روح القرآن وعمل الرســـول ، لما فيه من اغراق فى رواية الخوارق ، وابتعاد عن حدود العقل لظنهم أن ذلك مما يزين السيرة ويكسبها رواء . ويقربها الى أفهام الناس ، دون أن يفطنوا الى أن رواية هذا النوع من القصص مضر بالحق ، مضر بالتاريخ ، كما يغض من شأن النصر الانسانى الذى أحرزه النبى .

لقد رسموا صورة عن حياة الرسول وصلتنا فى تفاصيل دقيقة وصادقة فقط فى خطوطها الرئيسية ، أما سائر الألوان فقد جاءت نتيجة الاغراق فى التقوى ، والميل مع الهوى ، مجاراة للخيال الشعبى لدى الجماهير الساذجة وارضاء لرغبتهم فى تعظيم البطل ورفعه فوق درجة الانسان الى أقصى حد مستطاع ، أو لعله قد خيل اليهم

أن الكذب آية ح ب، وأن محمدا لا يكون عظيما الا اذا أضفوا عليه من الصفات مثل التى افتراها النصارى على المسيح ، فصوروا محمدا فى صورة انسان فوق الانسانية ، له قوى ربانية خارقة تسيطر على الدنيا ، وتتحكم فى مصير الوجود ، ولا يخفى عليها منه شىء !!

وابتدعوا قصصا وأحاديث ، أو نقلوها ـ بحسن نية أو بنية لئيمة مبيتة ـ هى نفثات يهودية ، ومفتريات وثنية ، وضلالات صليبية ، ورددتها الألسن والأقلام على مر العصور ، وكأنها حقائق وقضايا مسلمة دون تمحيص أو حتى أدنى تأمل ، وتلقفت الأجيال ـ خلفها عن سفلها ـ كل ذلك · وصنع التاريخ الكذوب لمن افتروا هذه الأكاذيب أو لمن رددوها عن بلاهة عروشا تسجد تحتها أفكار أجيال وأجيال ، وسخر لتمجيد تلك الأكاذيب كثيرا من الألسن والأقلام ، فصار من الصعب ، بل من المستحيل أن يفكر أحد فى نقد شىء من هذا التراث ، أو تعرية مافيه من أكاذيب وكشف مافيه من أخطاء ، والويل كل الويل لمن يجرؤ على ذلك ·

وصارت الترهات الممجوجة ، والأساطير الساذجة والبدع والخرافات وكأنها درر تتلألأ بنور الحق · بل صارت من أحب ما يعشق الناس مما كتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصارت مكانة هؤلاء أعلى مكانة ، ولهم أقوى سلطان يستطيع أن يعصف بكل من تسول له نفسه أن ينقد أو يقول كلمة حق تدحض تلك الضلالات ، أو تصحح تلك الأخطاء ، نعم : ان الباطل الذى سخر هذه العقول والألسنة والأقلام ، وملأ بطون أربابها بسحته لا يحب ولا يرضى أن يكشف الناس أنه باطل ، لأنه ـ بما هو عليه فى عقول عبيدى الخرافة ومصدقيها ـ يعيش مسجودا له ، معبودا مقدسا تساق اليه الهدايا والنعم والقرابين ، وتحتشد الدنيا فى باحاته وساحاته واحتفالاته وموالده بكل ترفها وزينتها وفسوقها ، وهيئة كبيرة العدد ، ضالة ومضللة من المنتفعين ترقص وتهلل وتدق الدفوف ، وتردد الأناشيد سقيمة الوزن ، هابطة المعانى ·

انهم يريدون منه أن يقول ماقال بعض مدعى الصوفية عن محمدهم الموهوم : ان محمدا هو الأول والآخر والظاهر والباطن ·· وأن يقول ما يقول نعقة الموالد ، وشعراء الربابة ! : لولاه ماكان ملك الله منتظما !!

أو ما قاله الأفاك الوضاع الذى افترى : ان الله قال لمحمد لولاك ما خلقت الأفلاك !!

أو ما قاله البوصيرى :

فان من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

واذا كان علم اللوح والقلم بعض علم محمد فماذا بقى لله ؟!

واذا كان علم اللوح والقلم بعض علم محمد فماذا بقى لله ؟!

يريدون منه أن يؤمن ، وأن يحمل الناس على الايمان بأن محمدا حى فى قبره لم يمت ، وأن أعمالنا تعرض عليه ، والذين يريدون حمله على هذا لا يعرفون عما جاء به محمد شيئا ، مدى معرفتهم أنه خلق من نور ، واذا مشى يسبقه النور ، واذا تكلم أخجل البدور ، وأجمل منه لم تلد النساء ·· وأن المصحف لا يجوز أن يمس على غير طهاره !! أما عن نبوة محمد ، أما ماذا فى المصحف من هدى ، أما الفضيلة والحق والحكمة فهم عنها عمون !!

بل انهم فى كثير مما تعرفه الحياة عنهم لا يذكرون محمدا الا حين يرون « عرائس المولد » ومن ثم تسمع همهمة ودمدمة وأصواتا متشنجة بلهاء ! وقد يخيل اليك أن هذه صلوات وتسبيحات وما هى الا نفثات نفوس مريضة وعقول مخبولة ·

فماذا نفعل لنكتب الحق ؟ أنجبن عن الهتاف الروحى الجميل بالحقيقة خشية هؤلاء المنذرين بالوعد والوعيد والعذاب الشديد ؟

أندهن كما يدهنون مخافة أن يعربد علينا الباطل ببهتانه وعدوانه ؟

ان من حق الصدق أن يأخذ مجاله فى التعبير عنه بأعلى صوت وأوسع نطاق · وان ايماننا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم لأكرم وأعز من أن نذله لدعاة الأفك ، وكهنة الزور ، أو نرغمه على الاستخذاء بغية النجاة من سلاطة جاهلية جاحدة ، أو سفاهة وثنية حاقدة ، وأن الحق الذى يجعل من الحياة شيئا جميلا وعظيما لأسمى من أن نسمح للأمية الدينية أن تستمر وتسود ، أو أن نأذن لهذا الركام الأسود من الأساطير أن يزحف على أفق نور الحق ليهزم الاسلام من داخله ليبقى فى النهاية مجرد مجموعة من الطقوس والخرافات ·

ثم انى أتساءل : هل تحتاج مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن تدعمها بالأكاذيب حتى نؤيد أو نردد كل أكذوبة اختلقت ؟

ان الذى يزعم هذا كالذى يزعم ان الحق فى حاجة الى الباطل، وان الصدق محتاج ـ فى تأييد الناس له ـ الى الكذب ، وان الايمان يريد سندا من الكفر ، وان الخير فقير الى الشر ، ليهب له فى الحياة مكانته ·

ان محمدا صلى الله عليه وسلم كالشمس لا تحتاج الى دليل يثبت انها بزغت سوى أن تراها وهى بازغة وحسب ، ومكانته أجل من أن نقترف الكذب لنثبت به أنه صدوق ، ان نوره يدل عليه ، ويثبت بلا برهان ـ سوى تألقه وتوهجه ـ انه حقا يضيء ، فلنقل عنه ما قاله ربه الذى خلقه فى أحسن تقويم ، لـ نقول انه ما كان بدعا من الرسل ، وانه كان بشرا يوحى اليه ·

هذا وليست الخوارق مما يغنى النبى فى دعوة المكابر المفتون ، انه ليزعمها اذن ضربا من السحر أو السكر ولو فتح له الأنبياء بابا من السماء « وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ، كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ، ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (الحجر ١١ ـ ١٥) ·

ولقد جاءت الخوارق طائعة لنبى الاسلام فصدقها الناس ولكنه عليه الصلاة والسلام أبى لهم أن يصدقوها أو يفهموها على غير حقيقتها ، ولو انه سكت عنها لحسبوها معجزة من المعجزات لم يحققق مثلها من قبل لأحد من المرسلين ·

مات ابنه ابراهيم ، وانكسفت الشمس ساعة دفنه ، وتصايح المسلمون حول القبر : انها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد عليه الصلاة والسلام ، ولو كان صلوات الله عليه رسولا من الرسل الذين يتصيدون الخوارق لما كلفته هذه الخارقة الا أن يسكت عنها فلا يدعيها ولا ينكرها ، ولكنه لم ينس فى ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه ، وبادرهم لساعتها مذكرا لهم بآيات الله وأن الشمس والقمر آيتان له لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ·

وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول غير مشروطة ولا مرتبطة بما وقر فى الأوهام من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والانباء بالمغيبات(١) ·

فحق القرآن هو الحق الأول ، فهو المهيمن على كل كتاب جاء به البشر ، فلنعتصم به ونحن نكتب أو ننقد ما كتب ليهب الله لنا الفرقان المبين ·

ولنستمع الى قول الحق تبارك وتعالى :

١ ـ « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك

(١) حقائق الاسلام ـ عباس العقاد ص ٥٩ ·

حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه · قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » (الاسراء ٩٠ ـ ٩٢) ·

٢ ـ « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين » (يونس ٢٠) ·

٣ ـ « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الأنعام ٥٠) ·

٤ ـ « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » (الأنعام ٥٩) ·

٥ ـ « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف ١٨٨) ·

٦ ـ « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم أن أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين » ·

(الأحقاف ٩) ·

٧ ـ « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (الكهف ١١٠) ·

٨ ـ « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢) ·

٩ ـ واقرأ ما أورده البخارى عن أنس : شج النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم » فنزلت « ليس لك من الأمر شىء »(٢) نعم الأمر لله وحده وما محمد الا انسان كباقى الناس يصح ويمرض ، يصيب فى الحرب ويصاب ، يجوع ويشبع ، يفرح ويحزن ، الله وحده هو المنزه سبحانه وتعالى ·

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ٤/١٦ ، والآية ١٢٨ من آل عمران ·

١٠ ـ واسمع ما رواه أحمد بثلاثة طرق(٣) ، وابن ماجه : عن موسى بن طلحه عن أبيه قال : مررت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى نخل المدينة ، فرأى أقواما فى رؤوس النخل يلقحون النخل · فقال : مايصنع هؤلاء ؟ قال : يأخذون من الذكر فيحطون فى الأنثى يلقحون به ، فقال : ما أظن ذلك يغنى شيئا · فبلغهم فتركوه ونزلوا عنها ، فلم تحمل تلك السنة شيئا ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : انما هو ظن ظننته ، ان كان يغنى شيئا فاصنعوا ، فانما أنا بشر مثلكم ، والظن يخطىء ويصيب ، ولكن ما قلت لكم قال الله عز وجل فلن أكذب على الله ·

١١ ـ ولقد رفض الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعظمه صحابته وقد ذكر الامام أحمد فى مسنده بثلاثة طرق عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله قال : لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد الله ورسوله ·

١٢ ـ واسمع ما رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن « قال صلى الله عليه وسلم : انما أنا بشر وانكم تختصمون الى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له على نحو ما أسمع · فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » ·

فمن كان هكذا عاجزا بنفسه عن ادراك حقيقة ماوقع بين خصمين فى زمنه ، وفى بلده ، وقد رأى أشخاصهما وسمع أقوالهما ، هو بلا شك أشد عجزا عن ادراك مافات ، وما هو آت · الا أن يشاء الله ·

وفقنا الله الى الحق ، وهدانا الى قوله ·

اصلان عبد السلام حسن

يونيو ١٩٨٧

(٣) مسند الامام احمد احاديث ارقام ١٣٩٥ ، ١٣٦٩ ، ١٤٠٠ ·

كيف ومتى كتبت السيرة

لما انتشر الاسلام ، ودخل الناس فيه أفواجا ، احتاجوا الى معرفة الاسلام منذ بدأ ، وأحوال الدعوة وتطورها ، وجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى نشرها ، وما صاحب ذلك من احتكاك بالمشركين ، وهجرات للمسلمين ، ومواقع حربية وغزوات وغير ذلك ·

فكان الداخلون فى الاسلام حديثا يسألون من سبقهم ، وكانت تعقد لذلك مجالس خاصة تتصل بالسير النبوية والدعوة المحمدية والغزوات ، وأمور الدين والشريعة ، من قرآن وحديث وتشريع ، وكانت الاجابة على تلك الأسئلة تمثل اللبنة الأولى فى علم السيرة ·

ثم لما بدأ الصحابة والتابعون الاشتغال بتفسير القرآن وشرح الأحاديث النبوية والتشريعات لمن دخلوا فى الدين من عرب وعجم ، احتاجوا الى دراسة أسباب النزول وأماكن النزول ، وظروف وأسباب

ومناسبات الأحاديث النبوية فأضـــاف ذلك لبنات أخرى فى علم السيرة ·

كما أن العرب فى جاهليتهم كان لهم تاريخ سجلوا فيه أيامهم المشهورة فى القصص ودواوين الشعر ، وكذلك الأمم غير العربية التى دخلت الاسلام كان لهم تاريخهم الذى كانوا يعتزون به ، فحفز ذلك المسلمين الى أن يكون لهم تاريخهم الاسلامى الذى يبدأ بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ·

وفى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى بدأت طائفة من كبار العلماء كلهم من التابعين الذين تلقوا معارفهم من الصحابة مباشرة ـ فى تدوين السيرة · وتتابعت على تدوينها طبقات متوالية كل منها يمثل حلقة خاصة ، الى أن انتهت الى ابن اســـحاق · ونستعير من المرحوم الأستاذ أحمد أمين الرسم التوضـيحى الذى يبين تلك الطبقات ، كما يلى :

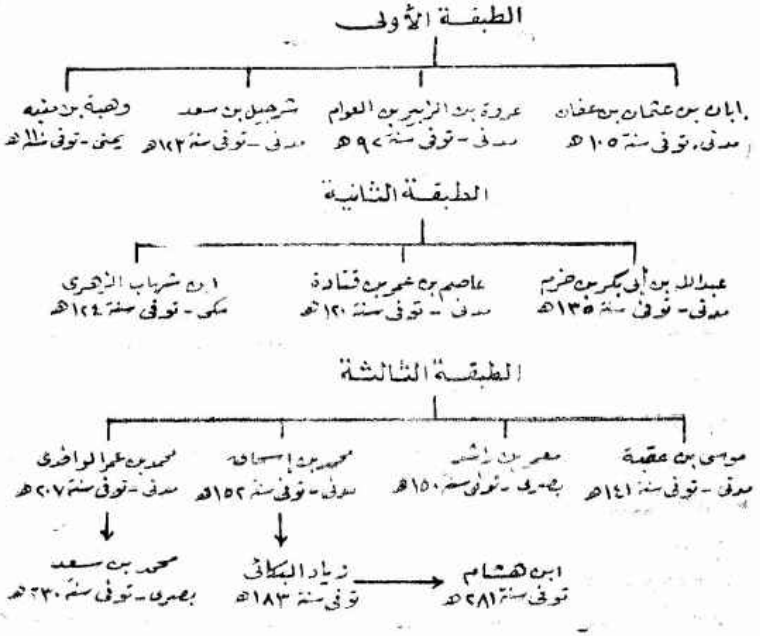

وهكذا أخذ زياد البكائى عن ابن اسحاق ، وأخذ ابن هشام عن البكائى ، فكانت السيرة المشهورة التى بين أيدينا الآن « سيرة ابن هشام » وهى فى الحقيقة سيرة ابن اسحاق اختصرها وهذبها ابن هشام فنسبت اليه ·

وحين بدأ محمد بن اسحاق تدوين كتابه لم يبدأ من فراغ ، وانما اعتمد على مدونات سبقته ، كما ان الذين أتوا بعد ابن اسحاق اعتمدوا كذلك على ما كتب قبلهم ، علاوة على ما أضـــافوه الى السيرة من أخبار قرأوها أو سمعوها من غيرهم ·

ومن الواجب أن نذكر ان ابن اسحاق قد سما بكتابه على جميع الذين سبقوه ، وجذب على الدوام أنظار المؤرخين المتأخرين ، ويعد كتابه فى رأى كثير من الباحثين ثمرة لتفكير أبعد أفقا ، وأوســـع مجالا من تفكير ســـابقيه ومعاصريه ، فهو لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول صلى الله عليه وسلم باتساق فى كتابه فحسب ، بل وسع أفق هذه السيرة فجعلها تاريخا للرسالة الالهية عامة ، فادخل فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين(١) قبل محمد صلى الله عليه وســـلم ·

هذا وقد كانت الســـيرة فى بداية أمرها مرتبطة بالحديث ، والذى لا يمكن اغفاله ان تخوف الطبقة الأولى من الصحابة وفتورهم عن تدوين الأحاديث مهما كانت أسبابه ـ قد يسر للعناصر الفاسدة التى اندست فى صفوف المسلمين من اليهود والنصارى وغيرهما من المشركين أو الذين لم يدخل الاسلام قلوبهم ـ قد يسر لهم الدس والكذب على الرسول ، وادخال الكثير من القصص ، وأخبار الأمم السابقة وبخاصة اليهودية حسبما روتها التوراه وشـــروحها ، وأضافوا قسما من تلك الأساطير الى تفسير القرآن ، من بين أولئك

---

(١) أدب التاريخ عند العرب ـ د. عفت محمد الشرقاوى ١/٢٥٦ ودراسات فى حضارة الاسلام ـ د. هاملتن جب ترجمة د. احسان عباس ود. محمد يوسف نجم ود. محمود زايد ص ١٤٨ ·

عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وأمثالهم ممن اتخذوا القصص مهنة لهم يخدعون الجماهير السذج بأساطيرهم ليبتزو أموالهم ، ويتملقوا بذلك الى الحكام ليستدروا عطفهم وأعطياتهم ، وقد ظهرت طلائع هؤلاء فى عصر الطبقة الأولى من الصحابة ، ولعل أول من تعاطى هذه المهنة تميم الدارى المعاصر للخليفة عمر بن الخطاب ، وقد استأذنه فى أن يقص على الناس فأبى عليه أولا ، وفى آخريات أيامه أذن له أن يقص على الناس مرة فى الأسبوع · ولما جاء عثمان بن عفان أطلق له السراح فانطلق يحدث الناس فى المسجد والمجتمعات بما لذ وطاب بدون وازع من دين أو رقابة من أحد ، ومما يشير الى عدم تحرج هذه الطبقة من الكذابين والقصاصين أن « روح بن زبناغ » دخل على تميم الدارى وهو ينقى لفرسه شعيرا فقال له : أما كان فى هؤلاء من يكفيك ؟ قال بلى : ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مامن امرىء مسلم ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلفه عليه الا كتب له بكل حبة حسنة(٢) ·

وحدث عبد الله بن سلام كما جاء فى الجزء الأول من تاريخ الطبرى عن بداية الخلق فقال : ان الله بدأ الخلق يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال الرواسى فى الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات فى الخميس والجمعة ، وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة ·

الى كثير من أمثال هذه الأساطير التى دسها اليهود وغيرهم بين المسلمين وأصبحت بعد ذلك من جملة الأحاديث التى روتها الطبقة الثانية ونسبتها الى الرسول ودونها المؤلفون فى كتبهم بين المرويات هنا وهناك ·

---

(٢) انظر السيرة النبوية ـ د. مروان محمد مصطفى شاهين ، ود. مصطفى محمد السيد ابو عماره وضحى الاسلام لأحمد أمين ٢/٣٢٠ والموضوعات فى الآثار والأخبار ـ هاشم معروف الحسينى ص ٢٢ ·

كما أن بعض الكتاب والقصاص ـ بحسن نية ـ ولحبهم الشديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أضافوا أخبارا أوحت بها أخيلتهم للمبالغة فى تقديس الرسول وآل بيته ظانين أن فى ذلك نوعا من المديح الذى سيجزون عنه خير الجزاء ·

فلقد احتوت بعض الكتب وبخاصة المتأخرة منها : روايات كثيرة فى سياق ذكر وجوده ونوره قبل نشأة الانسان الأولى فى سياق ذكر نسبه وحمله وولادته وبشائره دون أن يكون لها أصل من قرآن . أو سند من حديث صحيح أو دعامة من منطق بل وكثير منه لم يرد فى الروايات المدونة فى كتب السيرة القديمة حيث يبدو منها أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الانسان الكامل فى النبى صلى الله عليه وسلم الذى يتجلى فى إنتمين فى عظم الخلق ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وقوة الايمان ، والفناء فى الله ، والمهمة العظمى التى اضطلع بها : ورأوا أنه لابد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون ثمة مقدمات وبشائر ، وأن كان منها ما يخرج النبى عن النطاق الطبيعى للبشر أولا ، ولسائر الأنبياء ثانيا ، ويدخله فى نطاق اللاهوتية أو فى معناها ، وذلك حين يصفونه بالأب الأكبر لجميع الموجودات ، وأنه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه ، لأنه هو المقصود من خلق النوع الانسانى ، وأن جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسى وسموات وارضين وانس وجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره ، وأن أحد أجداده الياس كان يسمع تلبيته بالحج وهو فى صلبه ، وأنه كان يعلم بأمر نبوته مذ كان فى عالم الغيب وبعد خلقته ، ويرى علائم ذلك فى الشجر والحجر وهى تسلم عليه ، وأن أمه سمعت بشائر نبوته ، ورأت أعلامها حين وضعته الى آخر ذلك · ومن الغريب ومن الطريف معا أن يكون مثل هذا الغلو فى اعتقاد صفات النبوة هو الذى حمل طائفة من العرب على جحد نبوته والوقوف منه موقف المنكر المستغرب ، تخيلوا أن النبى لابد أن يكون فوق البشرية فى القدرة على الخوارق ومعرفة الغيب ، وتسخير الأكوان ، والخلود ، والصعود الى السماء واستنزال الملائكة ، وانفتاح كنوز الأرض له · فلما رأوه بشرا مثلهم يقرر بلسان القرآن مثليته البشرية ، ويرد عليهم حين يطلبون

منه الخوارق أنه ليس الا بشرا رسولا ، وأنه لا يعلم الغيب ، ولايملك خزائن الله ، وأنه ليس ملكا ، وأنه معرض لجميع ما يتعرض له البشر عجبوا وجحدوا وردد القرآن موقفهم وندد به فى آيات كثيرة (١٨٨ سور الأعراف ، ٤٩ يونس ، ٩٠ ـ ٩٤ الاسراء ، ٧ ـ ٨ الأنبياء ، ٧ ـ ٩ الفرقان)(٣) ٠

من كل ذلك يمكن أن نخلص الى أن مصادر التاريخ الاسلامى والسيرة تتركز فى ثلاثة مصادر :

المصـــدر الأول :

هو القرآن الكريم وهو مصدر لا يرقى اليه أى شك وقد حفظه الله تعالى كما بلغه رسوله ورتبه حفظا عظيما ، تمثل فيه المعجزة الربانية التى جاءت مصداقا لآية سور الحجر « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وفيه صورة قوية مشرقة عن سيرة النبى العربى العظيم ٠

المصـــدر الثانى :

أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه حيث تحتوى على مادة تاريخية غير قليلة ، ولو أن نطاقها ضيق لأنه منحصر فى حقبة قصيرة وهى حياة الرسول وخلفائه الراشدين ٠

وهى لم تسلم كما سلم القرآن ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ينهى عن كتابة شىء عنه غير القرآن ، وسار خلفاؤه الراشدون على سنته تفاديا من الاختلاط واللبس بين القران وبين كلام النبى الذى ليس قرآنا(٤) ، فلم يكد يدون من أحاديث النبى شىء فى حياته وفى عهد الخلفاء الراشدين الذى أمتد الى السنة الأربعين للهجرة ،

(٣) تاريخ الجنس العربى ـ محمد عزه دروزه ـ ٤٥/٦ ٠
(٤) قواعد التحديث للقاسمى ص ٤٥ ٠

باستثناء شىء قليل حيث روى أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يدون بعض الأحاديث فى صحيفة عرفت « بالصادقة »(٥) ، وأن عروة ابن الزبير كان يدون بعض الأحاديث التى كان يتلقاها من عمته أم المؤمنين عائشة ، وقد ظلت الأحاديث فى الصـــدور ومتداولة على الألسنة قرابة مائة عام ثم بدىء بتدوينها فى زمن عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) وبأمره ، ثم اتسع هذا النطاق حتى بلغ ذروته فى القرن الثانى والثالث والرابع حتى صـــارت الأحاديث المدونة تعد بمئات الألوف ٠

ثم حدث الخلاف على الحكم والســـلطان ، ثم أخذ يتفاقم ويتسع ، ونشأت نتيجة ذلك فرق وطوائف ، وشيع وأحزاب متنافسة متناحرة ، ثم تبع ذلك أو نجم عنه خلاف فى تأويل كثير من نصوص القرآن ، وتطور واتسع حتى شـــمل كثيرا من المعانى والمبادىء ، وانقسم المختلفون بدورهم شيعا وفرقا وطوائف متناحرة متناكرة ، واندمج فى هؤلاء وأولئك شعوبيون حاقدون على العرب والاسلام ، وحاولوا زيادة الخلاف والتناحر شـــدة ولهيبا ، وعمد كثير من المختلفين الى تأييد ارائهم وأهوائهم بأحاديث نبوية وصحابية ، وكان ذلك قبل جمع الحديث فى القرن الثانى للهجـــرة مع أن كثيرا منه يستدعى التوقف ويبعث على الشك ، ويتناقض مع نصوص القرآن ، والثابت من الحديث والمتواتر من الروايات والوقائع ثم من الحق والعقل والمنطق ، بل وقد ثبت لعلماء الحديث كذب كثير منه فأدى ذلك الى تشويه حوادث سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصـــار ، وبلبلة الأفكار فيها ٠**

وهكذا اختلط الســـمين من الحديث بالغث ، والضـــعيف بالصحيح ، والصادق بالموضوع : حين التدوين ، وكان ذلك من الكوارث على الاسلام والأمة الاسلامية وتاريخ العرب والاســـلام معـــا ٠

(٥) كتاب السنة للسباعى ص ٧٣ ٠

المصـــدر الثالث :

ويأتى بعد القرآن والحديث كمصـــدر من مصـــادر التاريخ الاسلامى روايات الرواة ، التى كانت تعنعن كالحديث راويا عن راو . وان لم تنل تمحيصا مثله · غير أن معظم الروايات التى تروى أحداث سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . والدولة الأموية والدولة العباسية ظلت محفـوظة فى الصدور متداولة على الألسن الى القرن الثانى للهجرة ·

وقد قلنا معظم الروايات لأن هنـــاك روايات تفيد أن بعض الكتاب قد كتبوا أحاديث وأخبارا عن الصدر الاسلامى الأول كما سبق أن أوضحنا ، غير أنه لم يصل الينا من هذه المدونات كاملة الا كتاب ابن اسحاق الذى هذبه ابن هشام . ومغازى الواقدى على شك فى أمره ، وطبقات ابن ســـعد ، وقد أدرك الطبرى واليعقوبى والدينورى وغيرهم من مؤرخى القرنين الثالث والرابع شيئا مما كتبه الكتاب الأولون وحفظوه لنا . ويمكن أن يضاف الى هذه القائمة البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ الذى وصل الينا كتابه القيم « فتوح البلدان » وابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ الذى وصل الينا كتابه « الامامة والسياسة » والذى دون فيه تاريخ الخلفاء الراشدين، كما وصل الينا كتاب «الخراج» للامام أبو يوسف المتوفى أواخر القرن الثانى ، وكذلك كتاب « الأموال » للامام أبو عبيد القاسم المتوفى سنة ٢٢٤ هـ وقد احتوى كتاباهما كثيرا من روايات الســـيرة النبوية والخلفاء الراشدين ·

ولقد لعبت الطبيعة البشرية دورا فى ما دونه المدونون القدماء أو رواه الرواه من روايات : حيث يلمس النـــاظر فيها كثيرا من المبالغات والمفارقات والخيـــال والتناقض والاختـــلاط والتعدد فى الأحداث والأسماء والوقائع والأزمنة والأمكنة ، وخاصة فى ما يعود الى ما قبل البعثة وروى أو دون كمقدمة للسيرة النبوية ، كما لعبت الأهواء الناجمة من الخلاف والشقاق والمنافسات فى الصدر الاسلامى الأول ثم فى زمن الدولة الأموية والشطر الأول من الدولة العباسية

دورا ايضا ، حيث يلمس القارىء آثار الحزبية والهوى ، وقصد التشويش والتشويه والتسوىء والتفاخر والتباهى الخ ·· ومنها ما روى ودون عن هوى ، ومنها ماروى وكتب كنقل أمين ·

ولقد صنع ابن هشام وابن سعد والبلاذرى وابن قتيبة والطبرى من الذين وصلت الينا كتبهم والذين رووا كثيرا من تاريخ ما قبل البعثة ثم من سيرة النبى وخلفائه الراشدين والدولة الأموية خيرا كثيرا فى اثباتهم روايات عديدة فى موضوع واحد كنقلة أمينين مع تنبيه بعضهم أحيانا الى عدم تصديقهم لبعضها أو شكهم فى بعضها ومع سكوتهم عن بعضها : فكانت من تلك الروايات مادة تاريخية هامة مهما كانت مشوشة فان فى الامكان استخلاص حقائق كثيرة منها وتمييز غثها من ســـمينها وكاذبها من صـــادقها بالمقارنة والتمحيص ·

وبعد فقد لاحظنا أثناء قراءة كتب الســـيرة القديمة منها والحديثة بعض الأخبار التى تحتاج الى وقفة لتمحيصها ، وسوف نذكر بعض هذه الأخبار والروايات محاولين ــ ان شاء الله وبتوفيقه ــ ان نوضحها أو على الأقل نلقى عليها بعض الضوء ·

رضاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

تذكر كتب السيرة فى موضوع رضاعة النبى صلى الله عليه وسلم أن المراضع التى وفدت الى مكة زهدت فى محمد الطفل اليتيم لفقره ، ولم تأخذه حليمة السعدية الا لأنها لم تجد غيره ، وتأخرت عن زميلاتها ، فخافت ان رجعت بدون طفل أن يعيرنها · ويذكر نفس الرواه أن محمدا كان حينئذ فى كفالة جده عبد المطلب · ثم يذكرون عن عبد المطلب أنه :

١ ـ تولى عبد المطلب بن هاشم السقاية بعد عمه المطلب ، وهى من الأعمال الشرفية التى يتكلف القائم بها الكثير ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم

خطره (شأنه) فيهم فكان الزعيم الروحى والسياسى ، وسيد مكه ، وكان يمارس أمور السلطة العليا فيها ، وكان له شرف انقاذ وطنه من غزو الأحباش(١) ٠

٢ ـ أنه افتدى ولده عبد الله قبل مولد محمد بعام بمائة من الابل قدمها قربانا ، فأكل منهـــا الناس فى الوادى ، والوحوش فى الجبال ٠ وكان الجمل الواحد يســـاوى حينئذ ٣ر٥ أوقية من الذهب(٢) ٠

٣ ـ فى عام الفيل كان له العديد من الابل ترعى فى ضواحى مكة ، فاستولى جنود أبرهه الحبشى على مائتين منها حين قدم غازيا راغبا فى هدم الكعبة ، وان عبد المطلب ذهب اليه وجرى بينهما حوار استرد على أثره عبد المطلب ابله ثم قدمها هديا للكعبة ٠

٤ ـ قال المؤرخ « برتش سميث » فى كتابه (القرابة والزواج عند العرب ص ٦٠)(٣) أن عبد المطلب لم يكن فقيرا وهو رأس بنى هاشم ، ويدلل على ما يقول بسند مخطوط مسجل به دين لعبد المطلب على رجل من صنعاء قيمته ألف درهم فضة ، وقد عثر على هذا السند فى بيت مال المأمون العباسى سنة ٨١٢ م ، ويقول المؤرخ المذكور ان الرجل الذى يقرض دراهم الفضة بالالوف خارج وطنه لا يكون فقيرا ٠

٥ ـ يقول الرواه ان عبد المطلب كان يمتلك آلافا من الابل ، وأن المائتى بعير التى استولى الأحباش عليها لا تمثل الا جزءا يسيرا من ابله ٠ كما كانت قوافله التجارية ترحل الى الشمام والى اليمن

(١) تاريخ العرب العـام ـ تاليف المستشرق ل.١. سيديو ترجمـــة عادل زعيتر ص ٥٨ ٠

(٢) دراسات فى السيرة النبوية ـ د. حسين مؤنس ص ١٨ ٠

(٣) عبد المطلب جد الرسول ـ د. على حسنى الخربوطلى . سلسلة اقرأ صفحات ٢٨ و ٥٣ ر ١٠٩ و ١٢٦ ٠

يقودها أبناؤه ، وكان بعضهم على جانب كبير من الثراء كالعباس والزبير وأبى لهب وحجـــل الذى كان يلقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله ٠

٦ ـ جاء فى السيرة الشامية عن ابن اسحاق أن أمه السعدية لما قدمت به مكة أفضلها فى الناس وهى مقبلة الى أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب فأخبرته ، فنهض عبد المطلب للبحث عنه ومعه ورقة بن نوفل حتى وجداه بوادى تهامة تحت شجرة ، وفرح عبد المطلب وأركبه فرسه ودخل به مكة ، ونحر عشرين جزورا وذبح الشياه والبقر وأطعم أهل مكة من ذلك(٤) ٠ وما يفعل ذلك رجل فقيرا !

٧ ـ يذكرون أيضا أن عبد المطلب لما مات أعظمت قريش موته ، وغسل بالماء والسدر ، وطرح عليه المسك حتى ستره ، ولف فى حلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال من الذهب(٥) ٠

٨ ـ يذكرون أيضا أن الطفل محمد وقت أخذ حليمة له كان مدرجا (ملفوفا) فى ثوب صوف أبيض ، وتحته حريرة خضراء ٠ وليس هذا شأن طفل فقير ، انما هذا ما يليق بطفل يكفله مثل هذا الرجل العظيم سيد مكة(٦) ٠

ومع ذلك ينسج خيال القصاصين أن الطفل كان فقيرا زهدته المراضع ، ليستدروا عطف السامعين ٠ والنبى عليه الصلاة والسلام لم يغنى عن ذلك ٠

(٤) سبل الهدى والرشاد (السيرة الشامية) ٤٧٥/١ ٠

(٥) اليعقوبى ١٠/٢ ـ ١٢ ٠

(٦) انظر سيرة ابن هشـام ٥٠/١ و ١١٢ و ١٤٨ وتاريخ الطبرى ١٥٨/٢ وسيرة النبى العربى ـ أحمد الناجى ١٨/١ والمواهب اللدنية للقسطلانى ٢٨/١ والانوار المحمدية من المواهب ـ يوسف بن اسماعيل البنهانى ص ٢٩ ٠

واذا صدقت الرواية التى تنقل عن حليمة السعدية ، فأن سبب الزهد لابد أن يكون اليتم وليس الفقر ، لأن منزلة اليتامى فى المجتمع الجـــاهلى لم تكن بالمنزلة الكريمة ، فقد كان الفقراء منهم يذلون ويقهرون ، وكان الأغنياء منهم يضطهدون ويظلمون ·

والقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية شـــاهدان على ذلك · فالقرآن يتحدث عن الجاهليين فيقول « كلا بل لا تكرمون اليتيم » (الفجر ١٧) ، ويقول « فذلك الذى يدع اليتيم » (الماعون ٢) ويتحدث الى محمد عن محمد اليتيم وعن الموقف الذى يجب أن يتخذه محمد من اليتامى فيقول « ألم يجدك يتيما فآوى » (الضحى ٦) ، ويقول « فأما اليتيم فلا تقهر » (الضحى ٩) ·

نعم لم تكن منزلة اليتامى فى المجتمع الجاهلى بالمنزلة الكريمة، يستوى فى ذلك الأغنياء والفقراء والذكور والاناث · ولما كان الاسلام دين العدل والرحمة فقد وقف القرآن الى جانب اليتامى · وقف الى جانبهم فجعل لهم حقا فى الغنائم ، ونصيبا من أموال الأغنياء ·· ومضى القرآن فى الوصاية بهم الى الحد الذى جعل الناس يذهبون الى أنه كاد أن يورثهم ، وذلك اشارة الى قوله تعالى « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا · وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا » (النساء ٨ و ٩) · والقرآن ملىء بالآيات التى تأمر بالبر باليتامى وعدم اضطهادهم بشكل يوضح مدى الظلم الذى كان يقع على اليتامى(٧) انظر الآيات : ١٧٧ و ٢١٥ من البقرة و ٣ و ٦ و ١٠ و ٣٦ و ١٣٧ من النساء و ١٥٢ من الأنعام و ٤١ من الأنفال و ٧ من الحشر و٨ من الانسان ·

وقد جرت عادة المؤرخين أن يبالغوا فى تصوير سوء الظروف التى أحاطت بمحمد صلى الله عليه وسلم فى طفولته وصـــباه ،

(٧) محمد والقوى الضادة ـ د. محمد احمد خلف الله ص ١٦ ·

فصوروه فقيرا محتاجا ، وما كان الرسول عليه الصلاة والسلام فى يوم من أيام حياته فقيرا ولا محتاجا ، وآيات سورة الضحى تصور أحواله فى طفولته وصباه وشبابه الباكر فيقول الله سبحانه وتعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » أى أنه كان يتيما فآواه جده ثم عمه ، ووجدك ضالا فهداه وحماه من الضلال والموبقات وأعده للرسالة الكريمة ، ووجده عائلا فأغناه بالتجارة قبل البعثة أولا ثم بما أكرمه من النبوة والرسالة بعدها ·

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شبابه وقبل زواجه من السيدة خديجة رضى الله عنها تاجرا ناجحا ميسور الحال ، ولهذا عهدت اليه فى تولى تجارتها ، فزاد فى هذه التجارة بأمانته وخبرته ، وبعد زواجه منها لم يعش على مالها وانما ظل يعمل فى التجارة على طريقة كبار المكيين . وكلام السيدة خديجة رضى الله عنها له بعد أن نزل عليه الوحى خير شاهد على ذلك فقد قالت له : انك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق(٨) ، ومعنى هذا أنه كان رجلا ميسور الحال : لديه ما يحمل به عبء الكل ، ويعطى المعدوم ، ويعين على نوائب الحق ، ولو كان الرسول ينفق كل هذا من مالها كما يتصور بعض الناس من أنه صلى الله عليه وسلم كان يعيش بعد زواجه من خديجة على مالها . لما قالت له خديجة ذلك ، وأين اذن فضله لو كان يقوم بذلك كله من مال زوجته ، وفى هذه الحالة كان من الممكن أن تقول له على سبيل التلطف : اننا نصل الرحم ، ونحمل الكل ، ونكسب المعدوم ، ونقرى الضيف ونعين على نوائب الحق ، فأما وقد قالت ذلك مخاطبة اياه لشخصه فلا شك فى أن ذلك كله كان من ماله لا من مال خديجة ·

وغريب أن الذين أرخوا للرسول عليه الصلاة والســـلام لم يفطنوا الى هذا المعنى وراء كلام السيدة خديجة رضى الله عنها ·

(٨) رواه البخارى عن يحيى بن بكير ، ورواه مسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرازق .

لقد كان محمد قبل زواجه وبعده رجلا ميسور الحال ، ورجلا تاجرا عارفا بشئون التجارة ، فقد روى البلاذرى ان خديجة عندما وجهت محمدا بمالها الى الشام عرفت البركة والنماء فى مالها على يده ، فاذا كان هذا ثمرة عمله فى مال زوجته فلاشك أنه كذلك كان ينمى ماله وينفق منه فى وجوه الخير(٩) ٠

اليتم اذا وليس الفقر هو الذى جعل المراضـــع يترددن فى الاقدام على أخذ الطفل محمد ـ ان صح ذلك ـ لاعتقادهن بقلة الجزاء نظير ارضاعه ، وخاصة وعبد المطلب كان شيخا طاعنا قربت نهايته ، فمن يضمن لهن الجزاء بعد ذهابه ، وفكرة اضطهاد اليتامى لديهم كما أوضحنا ، كما أنه يوم فى مكة ، ويوم فى اليمن ، ويوم فى الشام ، ومن يدرى فقد ينصرم أجله ويصبح حفيده عبئا على من تأخذه ٠

(٩) دراسات فى السيرة النبوية ـ د٠ حسين مؤنس ص ٣٠ ٠

رواية شق الصدر

كان من شيم العرب وأخلاقهم اذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة فى غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد ، وأفصح له ، وقد أخذت حليمة محمدا صلى الله عليه وسلم ٠ ويروى رواة السيرة حديث حليمة قالت : فلما أخذته رجعت الى رحلى فلما وضعته فى حجرى أقبل ثدياى بما شاء الله من لبن ، فشرب حتى روى ، وعرضت عليه الأيسر فأباه ، وكانت تلك عادته بعد ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام ، وماكنا ننام معه قبل ذلك ، فقام زوجى الى شارفنا (ناقتنا ذات اللبن القليل) فاذا بها حافل (أى ممتلئة الضرع من اللبن) فحلب منها ما شرب وشربت حتى ارتوينا وشبعنا ، فبتنا بخير ليلة٠ يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله ياحليمة لقد أخذت نسمة مباركة ٠ فقلت : والله انى لارجو ذلك ٠ ثم خرجنا وركبت أتانى

وحملته معى عليها فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهن حتى أن صواحبى يقلن لى : يابنت أبى ذؤيب ويحك أربعى (ارفقى) أليس هذا أتانك التى كنت خرجت عليها تخفضك طورا وترفعك أخرى (أى أنها كانت ضعيفة بطيئة) فأقول لهن : بلى والله انها لهى ، فيقلن والله ان لها لشأنا · ثم قدمنا منازل بنى سعد ، ولا أعلم أرضا من أراضى الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، حتى كان الحاضر فى المنازل من قومنا يقول لرعاتهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا لبنات ، فلم نزل نعرف من الله تعالى زيادة الخير حتى مضت سنتان ، وفصلته (أى فطمته) ·

وفى أثناء وجوده صلى الله عليه وسلم فى منازل بنى سعد روى الرواه حديث شق الصدر ، قالت حليمة « فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر كان مع أخيه فى بهم لنا خلف بيوتنا ، اذ أتى أخوه يشتد (يجرى) فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أى يدخلان أيديهما فى بطنه) · فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا : مالك يا بنى ؟ فقال جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال نعم ، فأقبلا يبتدراني ، فأخذانى فأضجعانى ، فشقا بطنى ، فالتمسا فيه شيئا فوجداه فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ماهو ·

هذه رواية ، وفى رواية أخرى أن ابن حليمة أتى يعدو فزعا وجبينه يرشح باكيا ينادى : يا أبت ويا أمه الحقا أخى محمدا فما تلحقانه الا ميتا : قلت وماقصته ؟ قال : بينما نحن قيام اذ أتاه رجل فأختطفه من وسطنا وعلا به ذروة الجبل ونحن ننظر اليه ، حتى شق صدره الى عانته ولا أدرى مافعل به ، فانطلقت أنا وأبوه نسعى، فاذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل شاخصا ببصره الى السماء يبتسم ويضحك ، فأقبلت عليه وقبلته بين عينيه وقلت له : فدتك نفسى ما الذى دهاك ؟ قال : خيرا يا أماه : بينما أنا الساعة قائم اذا أتانى

رهط ثلاثة بيد أحدهم ابريق فضة وفى الآخر طست من زمردة خضراء فأخذونى وانطلقوا بى الى ذروة الجبل فأضجعونى على الجبل اضجاعا لطيفا ·· الخ ·· »

وفى رواية ثالثة عنه صلى الله عليه وسلم « فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مملوءة ثلجا فأخذانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه عقلة سوداء فطرحاها ، وقيل : هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله ·

ورواية رابعة عنه أيضا « كنت مسترضعا فى بنى سعد فبينما انا ذات يوم منتبذا من أهلى فى بطن واد مع أتراب من الصبيان اذ اتى رهط من ثلاثة معهم طست من ذهب ملان ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هربا حتى أتوا على شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أربكم الى هذا الغلام ؟ فانه ليس منا · هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا ، يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فان كنتم لابد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فأقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يجيبون جوابا انطلقوا هربا مسرعين الى الحى يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم الى فأضجعنى على الأرض اضجاعا لطيفا ، ثم شق بطنى مابين مفرق صدرى الى منتهى عانتى وأنا أنظر اليه ، فلم أجد لذلك مسا ، واستخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فانعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قال الثانى منهم لصاحبه تنح عنه فنحاه عنى ، ثم ادخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر اليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء ثم رمى بها ·

وفى رواية أخرى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : انه عند ابتداء الوحى جاءنى جبريل وميكائيل فأخذنى جبريل لحلاوة القفا ، ثم شق عن قلبى فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج ، ثم غسله فى طست من ماء زمزم ، ثم أعاده الى مكانه ، ثم لأمه ، ثم أكفانى كما يكفى الاناء ، ثم ختم فى ظهرى » ·

وأورد ابن كثير فى « البداية والنهاية » رواية اخرى(١) : ان رجلا سأل النبى عن أول شأنه فقال صلى الله عليه وسلم : كانت حاضنتى من بنى سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها فى بهم لنا ، ولم نأخذ معنا زادا ، فقلت يا أخى اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق ومكثت عند البهم ، فأقبل طائران ابيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ فقال : نعم ، فأقبلا يبتدرانى ، فأخذانى فبطحانى للقفا ، فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشـــقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائتنى بماء ثلج فغسلا به جوفى ثم قال ائتنى بماء برد فغسلا قلبى ، ثم قال ائتنى بالسكينة فذرها فى قلبى ، ثم قال أحدهما لصاحبه خطه فخاطه وختم على قلبى بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه اجعله فى كفه واجعل ألفا من أمته فى كفه ، فاذا أنا أنظر الى الألف فوقى أشفق أن يخر على بعضهم ، فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا ، فتركانى وفرقت فرقا شديدا · ثم انطلقت الى أمى فأخبرتها بالذى لقيت فاشفقت أن يكون قد لبس بى فقالت أعيذك بالله ، ثم رحلت بعيرا وحملتنى على الرحل ، وركبت خلفى حتى بلغنا الى أمى فقالت : أديت أمانتى وذمتى ، وحدثتها بالذى لقيت ، فلم ترعها ، وقالت انى رأيت خرج منى نور أضاء قصور الشام ·

كما أورد ابن كثير أيضا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له أخبرنا عن نفسك قال : نعم ، أنا دعوة أبى ابراهيم ، وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا فى بهم لنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها · ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج ، حتى اذا ألقياه رداه كما كان ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزننى بعشرة فوزنتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزننى بمائة فوزنتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته فوزننى بألف

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ٢/٢٧٥ .

فوزنتهم ، فقال دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم · واضـــاف ابن كثير بأن هذا اسناد جيد قوى ·

كما ذكر أن أبا نعيم الحافظ روى فى الدلائل من طريق عمر بن الصبح هذه القصة مطولة جدا ، ولكن نظرا لأن عمر بن الصبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع فلم يذكر لفظ الحديث ·

وقرأت كتاب « دلايل النبوة » للحافظ ابى نعيم بن عبد الله الاصبهانى المولود سنة ٣٣٠ هـ والمتوفى فى ٢٠ محرم ٤٣٠ هـ (الكتاب موجود بالهيئة العامة للكتاب ، برقم ١٧٥٩ حديث) فلم أجد ـ وهذا أمر عجيب ـ أن الحافظ أبا نعيم قد روى رواية من طريق عمر بن الصبح ، وانما روى فى (١/٧١) الروايات الآتية :

بعد الاسناد : ان أبا هريرة رضى الله عنه : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جريا أن يسأله عن الذى لا يسأله غيره فقال يارسول الله ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة فقال : اذ سألتنى ، انى فى صحراء أمشى ابن عشر حجج اذا أنا برجلين فوق رأسى يقول أحدهما لصاحبه : أهوهو ؟ قال نعم · فأخذانى فلصقانى بحلاوة القفا ، ثم شقا بطنى ، فكان جبريل يختلف بالماء فى طست من ذهب وكان ميكائيل يغسل جوفى · فقال أحدهما لصاحبه افلق صدره ، فاذا صدرى فيما أرى مفلوقا لا أجد له وجعا ، ثم قال أشقق قلبه فشق قلبى فقال أخرج الغل والحسد منه فأخرج شبه العلقة فنبذه ثم قال أدخل الرأفة والرحمة فى قلبه فادخل شيئا كهيئة الفضة. ثم أخرج ذرورا كان معه فذر عليه ، ثم نقر ابهامى ، ثم قال أغد ، فرجعت بما لم أغد به من رحمتى على الصغير ورقتى على الكبير ·

وأورد أبو نعيم رواية أخرى : عن طريق ابى ذر الغفارى ، قال : قلت يارسول الله كيف علمت أنك نبى وبما علمت حتى استيقنت قال : يا أباذر أتيانى وأنا ببطحاء مكة فوقع أحدهما بالأرض وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه أهوهو ؟ قال هو هو نعم ، قال فزنه برجل فوزننى برجل فرجحته ، قال فزنه بعشـــرة

فوزننى بعشرة فرجحتهم ، ثم قال فزنه بمائة فوزننى بمائة فرجحتهم ثم قال فزنه بألف فوزننى بألف فرجحتهم ، ثم جعلوا يتساقطون على فى كفة الميزان ، ثم قال أحدهما لصاحبه ، شق بطنه فشق بطنى فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطرحهما ، فقال أحدهما لصاحبه أغسل بطنه غسل الاناء وأغسل قلبه غسل الملاء ، ثم قال أحدهما لصاحبه خط بطنه فخاط بطنى وجعل الخاتم بين كتفى كما هو الآن ، ووليا عنى فكأنى أعاين معاينه ٠

كما أورد أبونعيم رواية ثالثة : عن أنس رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق بطنه فاستخرجه ، ثم استخرج من قلبه علقة سوداء فقال هذا حظ الشيطان منه ثم غسل القلب فى طست من ذهب بماء زمزم ثم أعاده مكانه ثم لأمه ٠ قال أنس فلقد رأيت أثر المخيط فى صدره صلى الله عليه وسلم ٠

وجاء فى « دلائل النبوة » للبيهقى (١ / ٧٦) من حديث حليمة السعدية قالت : لم يزل الله تعالى يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتيه (أى رسول الله) فكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فوالله ما بلغ سنتين حتى كان غلاما جفرا (شديدا) فقدمنا به على أمه ونحن أضن شىء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه قلنا لها دعينا نرجع ببنينا هذه السنة الأخرى فانا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم فسرحته معنا ، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة ، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بهم (صغار الغنم) لنا ، جاءنا أخوة ذلك يشتد ، فقال ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه ، فنجده قائما منتقعا لونه ، فاعتنقه أبوه فقال أى بنى ما شأنك ؟ فقال جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئا وطرحاه ، ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا ٠ فقال أبوه ياحليمة لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب فانطلقى بنا نرده الى أهله قبل أن يظهر فيه ما نتخوف ٠ قالت حليمة : فاحتملناه ، فلم ترع أمه الا به قد

قدمنا به عليها ، فقالت ما ردكما به ؟ فقد كنتما عليه حريصين ! فقلنا لها لا والله الا أن الله تعالى قد أدى عنا وقضينا الذى علينا ، فقلنا نخشى الاتلاف والأحداث نرده على أهله ٠ قالت : ما ذاك بكما فأصدقانى شأنكما فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره فقالت : أخشيتما عليه الشيطان ٠ كلا والله ما للشياطن عليه سبيل ، وانه لكائن لابنى هذا شأن ٠٠ الخ ٠٠

كما أورد البيهقى رواية أخرى عن أنس سبق ذكرها ٠

وذكر القرطبى فى تفسيره ، والترمذى فى كتاب التفسير رواية عن أنس أن النبى قال : فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان اذ سمعت قائلا يقول أحد بين الثلاثة ٠ فاتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم فشرح صدرى الى كذا وكذا ٠ قال قتاده : قلت يعنى قلت لانس ما يعنى ؟ قال الى أسفل بطنى ٠ قال : فاستخرج قلبى فغسل قلبى بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ثم حشى ايمانا وحكمة ٠

كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « جاءنى ملكان فى صورة طائر معهما ماء وثلج فشرح أحدهما صدرى وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله » ٠

كما أورد الألوسى فى « روح المعانى » (٣٠/١٦٦) والسيوطى فى الدر المنثور أن أبا هريرة قال : يارسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال لقد سألت أبا هريرة : انى لفى صحراء ابن عشرين سنة وأشهر اذا بكلام فوق رأسى ، واذا رجل يقول لرجل أهو هو ؟ فاستقبلانى بوجوه لم أرها بخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أجدها على أحد قط ، فأقبلا الى يمشيان حتى اذا دنيا أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا ٠ فقال أحدهما لصاحبه أضجعه ، فأضجعنى بلا قصر ولا هصر ، فقال أحدهما أفلق صدره ، فهوى أحدهما الى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ، ولا وجع ، فقال له اخرج الغل والحسد فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها ، فقال له

أدخل الرأفة والرحمة ، فاذا مثل الذى أخرج شبه الفضة ، ثم هز ابهام رجلى اليمنى وقال اغد واسلم فرجعت أغدو بها رأفة على الصغير ورحمة على الكبير ٠

وأورد ابن الأثير فى « الكامل فى التاريخ » رواية أخـــرى (١/٧٢) يقول فيها : قال شداد بن أوس ، بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أقبل شيخ من بنى عامر ، وهو ملك قومه وسيدهم ، شيخ كبير متوكئا على عصا ، فمثل قائما . وقال : يا ابن عبد المطلب انى أنبئت انك تزعم انك رسول الله ، أرسلك بما أرسل به ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، الا وانك فهت بعظيم ، الا وقد كانت الأنبياء من بنى اسرائيل ، وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان ، ومالك والنبوة ؟ وان لكل قول حقيقة ، فما حقيقة قولك وبدو شأنك ؟ فأعجب النبى (ص) بمسألته ، ثم قال : يا أخا بنى عامر اجلس ، فجلس ، فقال له النبى (ص) ان حقيقة قولى وبدو شانى : انى دعوة أبى ابراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، وكنت بكر أمى ، وحملتنى كأثقل ما تحمل النساء ، ثم رأت فى منامها ان الذى فى بطنها نور ، قالت : فجعلت اتبع بصرى النور وهو يسبق بصرى حتى اضاءت لى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم انها ولدتنى فنشأت ، فلما نشأت بغضت الى الأوثان والشعر ، فكنت مسترضعا فى بنى سعد بن بكر ، فبينما انا ذات يوم منتبذا من أهلى مع اتراب من الصبيان اذ أتانا ثلاثة رهط ، معهم طست من ذهب مملوء ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هرابا حتى انتهوا الى شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما اربكم الى هذا الغلام ؟ فانه ليس له أب وما يرد عليكم قتله ؟ فلما رأى الصبيان الرهط لا يردون جوابا ، انطلقوا مسرعين الى الحى يؤذنونهم بى ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم فاضجعنى على الأرض اضجاعا لطيفا ، ثم شق ما بين مفرق صدرى الى منتهى عانتى ، فانا انظر اليه لم أجد لذلك مسا ثم أخرج احشاء بطنى فغسلها بالثلج فانعم غسلها ، ثم اخرج قلبى فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، قال بيده يمنه منه كأنه يتناول شيئا فاذا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه ، فختم به قلبى فامتلأ

نورا ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرا ، ثم قال الثالث لصاحبه تنح فتنحى عنى ، فأمر يده ما بين مفرق صدرى الى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى ٠ ثم أخذ بيدى فانهضنى انهاضا لطيفا ، ثم قال الأول الذى شق بطنى زنه بعشرة من أمته فوزنونى بهم فرجحتهم ، ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنونى بهم فرجحتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته فوزنونى بهم فرجحتهم ، ثم قال دعوه فلو وزنته بأمته كلهم لرجح بهم ، ثم ضمونى الى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى ، ثم قالوا ياحبيب لم ترع انك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقر به عينك ٠ قال : فبينما نحن كذلك اذ أنا بالحى قد جاءوا بحذافيرهم ، واذ ظئرى أمام الحى تهتف بأعلى صوتها وهى تقول : ياضعيفاه ، قال : فانكبوا على يعنى الرهط ، وقبلوا رأسى وما بين عينى ، وقالوا : حبذا أنت من ضعيف ٠ ثم قالت ظئرى ياوحيداه ، فانكبوا على فضمونى الى صدورهم وقبلوا ما بين عينى وقالوا حبذا أنت من وحيد ، وما أنت بوحيد ان الله معك ٠ ثم قالت ظئرى يا يتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك فانكبوا على وضمونى الى صدورهم وقبلوا ما بين عينى ، وقالوا حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله لو تعلم ما يراد بك من الخير ، قال فوصلوا بى الى شفير الوادى ، فلما بصرت بى ظئرى قالت : يا بنى ألا أراك حيا بعد ؟ فجاءت حتى انكبت على وضمتنى الى صدرها فوالذى تأمنى بيده انى لفى حجرها وقد ضمتنى اليها ، وان يدى فى يد بعضهم ، اجعلت التفت اليهم : وظننت أن القوم يبصرونهم يقول بعض القوم ان هذا الغلام أصابه لمم أو طائف من الجن انطلقوا به الى كاهننا حتى ينظر اليه بداويه ، فقلت ماهذا ؟ ليس بى شىء مما يذكر ان ارادتى سليمة وفؤادى صحيح ليس فى قلبه : فقال أبى من الرضاع ألا ترون كلامه صحيحا ! انى لأرجو أن لا يكون بابنى بأس ، فاتفقوا على أن يذهبوا الى الكاهن ، فذهبوا بى اليه ، فلما قصوا عليه أصغى قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام فانه أعلم بأمره منكم ، فاقتصصت عليه أمرى من أوله الى آخره ، فلما سمع قولى وثب الى وهسمنى الى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته ياللعرب : اقتلوا هذا

الغلام واقتلونى معه فواللات والعزى لئن تركتوه فادرك ليذلن دينكم ، ويخلفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط ، فانتزعتنى ظئرى منه ، وقالت لأنت أجن وأعته من ابنى هذا ، فاطلب لنفسك من يقتلك فانا غير قاتليه ، ثم ردونى الى أهلى فأصبحت مفزعا مما فعل بى ، وأثر الشق مما بين صدرى الى عانتى كأنه الشراك . فذلك حقيقة قولى ، وبدو شأنى يا أخا بنى عامر · فقال العامرى أشهد بالله الذى لا اله الا هو ان أمرك حق ·

نكتفى بهذا القدر من الأخبار والروايات التى وضـــح فيها التباين والتناقض والاختلاف ·

يقول المرحوم عبد الحميد جوده السحار ـ فى كتابه محمد رسول الله والذين معه (مولد الرسول ٣١٢/٦) « انه لم يسرد هذه الأحداث فى السيرة لأنها ليست ذات أثر فى حياة الرسول ، فقبيلة هوازن التى رضع فيها لم تؤمن به الا بعد فتح مكة ، وبعد أن نشبت بين المسلمين وبين هوازن حرب حنين كادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلو أن القبيلة كانت أسلمت بفضل بركته أيام كان يسترضع فى بنى سعد لكان لمثل هذه الأحداث أثر بارز فى السيرة ، أما وأن الله تبارك وتعالى قد كتب على نبيه الكفاح والجهاد والعمل والصبر ليبلغ رسالات ربه ، وليمكن لدينه فى الأرض فلم يعد لتلك الروايات مكان فى سيرة رجل نشر دين الله بالعرق والجهد والعمل والقدوة الحسنة ·

ان الله قادر على أن يحتفل بمولد رسوله الكريم ، وهو قادر على أن يغمر الأرض ببركته وأن يملأها خيرا ، ولكن الله أراد أن يضرب رسوله المثل للناس ، وأن يعلمهم أن الأهداف الكبيرة لا يمكن الوصول اليها بالخوارق والمعجزات بل بالعمل الجاد الذى يراد به وجه الله الكريم « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . انما أنت منذر ولكل قوم هاد » ·

ويقول السحار أنه لم يشر الى شق الصدر أو البطن ، لا لاضطراب الروايات فحســـب بل لأن الله ليس فى حاجة الى اجراء

عملية جراحية ليطهر قلب نبيه ويملأه حكمة ، وأنه يعتقد أن كل ما جاء عن شق الصدر قد وضع بعد صدر الاسلام عندما أراد الشراح شرح الآية الكريمة « ألم نشرح لك صدرك » فقد بعد الشراح عن روح القرآن وروحانيته ، ولجئوا الى الماديات المحسوسة لتفسير معانى روحية سامية ، فابتدعوا روايات متنافرة لا يقبلها العقل ولا المنطق ، ولا الذوق السليم : فمن ذا الذى يصدق أن ملاكين قد هبطا ليطهرا قلب النبى صلى الله عليه وسلم فلا يعرفانه فيقول أحدهما : أهو هو ؟ فيقول الآخر نعم !! وكيف يريد منا واضعوا هذه الأحاديث أن نصدق أن الرسـول قال مرة جاءنى رجـلان ، ومرة اخرى جاءنى نسران ، ومرة ثالثة جاءنى رهط من ثلاثة ! وكيف يريد واضعوا هذه الأحاديث أن نصدق أن أطفالا صغارا يقولون للملائكة ·· فان كنتم لابد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ·· يا الله ! أهؤلاء صبية يلعبون أم أتباع محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن آمنوا به وصدقوه !! ومتى وقعت حادثة شق الصدر أو البطن ؟! أوقعت فى أرض هوازن ؟ أو وقعت فى مكة قبل البعث ! وبماذا كان التطهير ؟ بالثلج أو بماء زمزم ؟ ان هذه الحادثة لم تقع الا فى مخيلة واضعى هذه الأحاديث ·

وتناول الأستاذ محمد لطفى جمعه فى كتابه « ثورة الاسلام وبطل الأنبياء » (ص ٤٦٠) موضوع شق الصدر ، واستبعد حدوثه وقال « ان محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن فى حاجة الى ارهاص من هذا القبيل بعد أن تواترت الأدلة على صحة رسالته بما هو أعظم وأظهر » · ويقول أيضا أنه لا يتعرض لهذه القصة لتعدد الروايات بشأنها ، ويعتقد أن مثلها كمثل بقية القصص التى تصف خوارق العادات والارهاصات . وقد نسبت اليه وعمره سنتان ، وقالوا أربع سنين وقالوا ست سنين . وهذه القصـــة أعطت بعض المؤرخين الغربيين الحجة فى الايحاء باصابة محمد بنوبة صـــرع كما قال مرجليوث · ويضيف المؤلف « يريد بعض مؤرخى النبى صلى الله عليه وسلم من العرب أن يقنعونا بأن ملائكة فى صورة رجال جاءوا يحملون أوانى من فضة وجوهر وشفره ليشقوا بها جسم محمد من الصدر الى العانة ليطهروا قلبه ، ونحن نأبى التصـــديق لا لأنه

مستحيل الوقوع بل لأن الله سبحانه وتعالى قادر على تطهير قلب نبيه بلا عملية جراحية تعمل على أيدى الملائكة فى ظرف حرج بصورة مزعجة ، وحتى ينفوا انفراد محمد برواية ما جرى جعلوا أخاه من الرضاع يقول لأمه وهو يعدو فزعا وجبينه يرشح باكيا : يا أبت ويا أماه الحقا أخى محمد فما تلحقانه الا ميتا ، ويصف الأطفال الابريق بأنه من فضة والطست من زمرد . ولعل أطفال حليمة أو محمدا نفسه لم يروا فى بيداء بنى سعد وفى هذه السن شيئا من الفضة أو الزمرد حتى يصفوها بالدقة وأنا لهم رؤية المعادن النفيسة والجواهر فى البادية وهم يرعون الغنم !!

ويختم المؤلف كلامه بأن المؤرخين العرب وكتاب السيرة كانوا لا يغربلون ما يكتبون بل يحشدون الأقوال حشدا كالأشلاء فيسقط عليها العقبان والغربان والجوارح تنهشها وتتغذى بها وصدق من قال : « لكل ساقطة لاقطة » من أمثال مرجليوث وسبرنجر وميور .

وكتب الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطى فى كتابه « فقه السيرة ص ٥٦ » بعد رواية شق الصدر : ليست الحكمة من هذه الحادثة ـ والله أعلم ـ استئصال غدة الشر فى جسم الرسول صلى الله عليه وسلم اذ لو كان الشر منبعه غدة فى الجسم أو علقة فى بعض أنحائه لأمكن أن يصبح الشرير خيرا بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هى اعلان أمر الرسول وتهييؤه للعصمة والوحى منذ صغره بوسائل مادية ليكون ذلك أقرب الى ايمان الناس به وتصديقهم رسالته ، انها اذا عملية تطهير معنوى ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادى الحسى ليكون فيه ذلك الاعلان الالهى بين اسماع الناس وبصائرهم .

وايا كانت الحكمة فلا ينبغى ـ وقد ثبت الخبر ثبوتا صحيحا ـ محاولة البحث عن مخارج لتخرج منها بهذا الحديث عن ظاهره وحقيقته الى التأويل المعوجة البعيدة المتكلفة ولن نجد من مبرر لمن يحاول هذا ـ رغم ثبوت الخبر وصحته ـ الا ضعف الايمان بالله عز وجل .

ينبغى أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر انما هو صدق الرواية وصحتها ، فاذا ثبت ذلك ثبوتا بينا فلا مناص من قبوله موضوعا على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ دلالة اللغة العربية وأحكامها ، والأصل فى الكلام الحقيقة ، ولو أنه جاز لكل باحث وقارىء أن يصرف الكلام عن حقيقته الى مختلف الدلالات المجازية ليتخير من بينها ما يروق له لأفشلت قيمة اللغة وفقدت دلالتها وتاه الناس فى مفاهيمها . وينهى الأستاذ البوطى كلامه بقوله : ثم فيم البحث عن التأويل ومحاولة استنكار الحقيقة ؟ اما أن ذلك لا يأتى الا من ضعف الايمان بالله ، وبالتالى من ضعف فى اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته ، واللا فما أسهل اليقين بكل ما صح نقله سواء عرفت الحكمة والعلة أم لم تعرف (ثم يذكر المؤلف فى الهامش أن الرواية جاءت فى صحيح مسلم ـ وفعلا وجدتها فى صحيح مسلم فى ١٤٧/١ بستة طرق بأرقام ٢٦٠ حتى ٢٦٥ ـ طبعة دار احياء الكتب العربية ـ البابى الحلبى وشركاه) وأضاف الأستاذ البوطى أنه ثبت فى الصحيح تكرار حادثة شق الصدر أكثر من مرة .

وذكر الدكتور محمد الطيب النجار فى كتابه « محمد رسول الله » : أنه يخص حادثة شق الصدر بالحديث لأنها كانت حدثا هاما فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم : اذ وجهت الأنظار اليه وهو فى هذه السن المبكرة ، وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل ان يبعثهم للناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو فى الثالثة من عمره انه كان مع أخيه من الرضاع فى بهم خلف بيوتهم .. الخ الرواية . وان السيدة حليمة قد خشيت عليه أن يكون قد أصابه شىء فأرجعته الى امه آمنة وقصت عليها النبأ العجيب . وتروى كتب السنة والسيرة وقوع هذه الحادثة للرسول ليلة الاسراء والمعراج ، فلقد روى الامام أحمد والامام مسلم عن الرسول أنه قال : فرج سقف بيتى وانا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم

جاء بطست من ذهب مملوء حكمة وايمانا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه · ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر فيذهب البعض منهم الى أنه شق حقيقى وأنه معجزة وقعت مرتين مرة قبل البعثة ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون ارهاصا للنبوة ، وبشيرا بما ينتظر لمحمد (ص) من مركز كبير ومقام كريم ، وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف الى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه عليه الصلاة والسلام والتى تؤيد صدقه فى دعواه ·

ويذهب البعض الآخر الى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وانما يقصد منه ما يفهم من قوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك » فهى بذلك تكون اشارة الى تطهير الرسول (ص) من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس ، والسمو به الى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية ·

ويقول الدكتور محمد الطيب النجار أن ممن يرون هذا الرأى من علماء هذا العصر الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « فقه السيرة » فلقد جاء فيه « ان بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس . فاذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع الى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين ــ بتولى الله لها ــ لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا يهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى لا فى مقاومة التدلى وفى تطهير العامة المنكر لا فى التطهير منه فقد عافاهم من لوثائه · عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله (ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : واياك يارسول الله قال : واياى الا أن الله أعاننى فأسلم فلا يأمرنى الا بخير) ثم يقول : ولعل أحاديث شق الصدر تشير الى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد فجعله من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الانسانى ، ومفاتن الحياة الارضية · وقد أورد الخازن فى تفسير القصة الأولى ــ أيام الرضاعة ــ عند تفسيره لقول الله عز وجل « ألم نشرح لك صدرك » وشرح الصدر التى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب ، ويحسن أن تعرف

شيئا عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع فى السنة . فعن عائشة أن بعض أزواج النبى قلن يارسول الله : أينا أسرع بك لحوقا قال : أطولكم يدا · فأخذن قصبة يذرعنها ، فكانت سودة أطولهن يدا ، ولكن بعد موت زينب بنت جحش علمنا أن النبى انما أراد طول اليد بالصدقة · (انتهى كلام الشيخ الغزالى) ·

ويقول الدكتور الطيب النجــــار ان محمدا لم تدعه العناية للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من الناس ، وانه لو لم يقم الملكان بشق صدره ما كان أبدا غرضا للوساوس ، بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم · وانما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة فى نوعها أن تتوجه الأنظـار والقلوب الى محمد فى طفولته وبعد بعثته ، ويعرف الناس عنه ان عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره ، وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمة والأبرص على يدى المسيح عليه السلام هى العناية التى شقت صدر محمد ثم ارجعته فى لحظات الى حالته الطبيعية . وهذا شأن المعجزات التى لا تخضع ولا ترتبط بالأســـباب العادية ، ولا ينبغى بأى حال من الأحوال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازية ، لأن سياق القصة والتعبير بلفظ (جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض) وكلمة (فأضجعانى وشقا بطنى) وفرار أخيه من الرضاعة فزعا مما رأى، ومجىء السيدة حليمة هى وزوجها بعد أن أخبرهما ولدهما بما أصـــاب أخاه محمدا ومقابلتهما لمحمد وهو ممتقع لونه وحكايته للقصة مرة ثانية بنفس هذه الألفاظ ، كل ذلك يجعل الحقيقة فى هذه القصة واضحة لذى عينين . ويبعد بها عن الأسلوب المجازى بعد المشرقين ·

واذا كان بعض المستشرقين ينكر هذه الحادثة لأنها تعتمد على رواية طفلين لا يصح الأخذ بقولهما فاننا نرى أن رواية الأطفال كثيرا ما تكون بعيدة عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال ، ومع ذلك فقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الحادثة

بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه ، وأخبر عن المرة الثانية التي وقعت له ليلة الاسراء والمعراج ·

واذا فالرأى الذى نرتضيه هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية ، وأنه من الارهاصات التي تبشر بنبوة محمد تسلط عليه الأضواء قبل النبوة ، اذ ليس هناك ما يمنع من ذلك ما دمنا نؤمن بالعناية الالهية التي تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ·

ثم نذكر أخيرا رأى الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله الذى أورده فى كتابه « خاتم النبيين » يقول : نقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة فى شق صدره عليه السلام · فقد رويت فى ذلك أخبار بعضها فى خبر قصير ، وبعضها فى خبر طويل ، ولا تخلو من زيادة فى بعض ، ونقص فى أخرى وان كان المعنى الأصلى متفقا فى الجميع · ولنذكر واحدا منها وهو ماروى وثبت فى صحيح مسلم عن طريق حماد وابن سلمه عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله (ص) أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه وشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان ثم غسله فى طست ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم أعاده مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه (يعنى ظئره) فقال ان محمدا قد قتل · فاستقبلوه وهو ممتقع اللون . قال أنس وقد كنت أرى ذلك الخيط فى صدره ·

ويلاحظ الشيخ أبو زهرة فى ذلك الخبر أمرين :

أولاهما : ان الخبر فيه أنه غسله بماء من زمزم ، ويلاحظ أن الواقعة ــ ان صحت ــ كانت فى البادية فى مكان نأى عن زمزم ، واذا كان من ماء مع جبريل فمن أين علم أنه من زمزم ·

ثانيهما : انه ذكر انه كان يرى أثر المخيط فى صدره عليه السلام ، واذا صحت الواقعة فان المعقول أن ذلك عمل ملك ، والملك لا يكون لعمله أثر محسوس ·

ونحن نرى ان الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب ، وعلى فرض انها صحيحه لا نقول انها غير معقولة بل اننا نقبلها ــ ان صحت ــ ولكن الاضطراب فى خبرها يجعلنا نقف غير رادين ولا مصدقين · ومهما يكن الأمر فى القصة فان الغلام الظاهر كانت تحوطه أمور خارقه للعادة لم تكن لتحدث للغلمان فى سنه عادة ·

وبعد فقد ذكرنا بعض الروايات التى وردت عن حادثة شق الصدر ، وأوردنا رأيين لعالمين يؤيدان ويؤكدان حدوثها ، كما أوردنا رأيين لعالمين يعارضان القصه ويستبعدان حدوثها ، وأوردنا رأيا يقف فى الوسط فلا يؤيد ولا يعارض ، ولكن التأييد وعدم التأييد أو الوقوف على الحياد ينصب على عمليه شق الصدر ، ولم أقرأ ــ فى حدود ثقافتى المتواضعه ــ لأحد تناول موضوع وزن الطفل بالف من أمته ، سوى ما كتبه الشيخ جمال الدين محمد الاشخر اليمنى الذى اتفق مع الاستاذ محمد الغزالى فى اعتبار الأمر على سبيل المجاز وليس حسيا(٢) ·

وأجدنى مضطرا أن أعلق على ذلك لأن هنا سؤال يفرض نفسه : لماذا لم يرد أى خبر عن هؤلاء الألف ، ولماذا سكت التاريخ عنهم ؟ ولماذا لم يتحدث أى واحد منهم أنه وضع مع الف من قومه فى كفة ميزان لا شك فى ضخامته ليزنوا طفلا فى الثالثه أو الرابعة أو الخامسة أو العاشرة ، وان هذا الطفل وزنهم ، واذا افترضنا أن ما ذكره أحد العالمين المؤيدين من أن الحادثه ليست مجازا وانما هى حقيقة حسية « واضحه لذى عينين ويبعد بها عن الاسلوب

---

(٢) كتاب شرح العلامه جمال الدين محمد الأشخر اليمنى على كتاب « بهجة المحافل وبغية الأماثل » فى تلخيص المعجزات والسير والشمائل للامام عماد الدين يحيى بن أبى بكر العامرة ص ٤٤ ·

المجازى بعد المشرقين » فان ألفا من الناس يوضعون فى كفة ميزان لأمر عجيب ، عجيب لديهم أنفسهم ، وعجيب لمن شاهدوا عملية الوزن نفسها ، وكان من الطبيعى ـ ان كانت قد حدثت ـ أن يكون لها دوى شديد ، وتأثير خطير فى بنى سعد بصفة خاصة ، وفى قبيلة هوازن بصفة عامة ، وكان هذا كفيلا بجعل هؤلاء القوم من أسرع الناس الى تصديق الرسول يوم أعلن رسالته ، ولكن العكس قد حدث فقد كانت هوازن ـ كما هو ثابت تاريخيا بلا أدنى شك ـ من آخر القبائل ايمانا بمحمد ، وظلت فى عنادها حتى بعد أن فتحت مكة وحتى بعد حرب حنين التى كانت الدائرة تدور فيها على المسلمين ·

أطمس الله على ألسنة هؤلاء الألف وعلى سمعهم وعلى أبصارهم وعلى أفئدتهم فلم يهتموا بهذا الأمر العجيب ولم يشعروا به ، واذا كان ذلك كذلك فما هى حكمة المعجزة اذا ؟!!

يا أصحاب العقول لوأن هؤلاء الألف لهم وجود لانتشر خبرهم ولأج فى بنى سعد وهوازن وما حولها من القرى ·

هى الخرافة اذا صورتها وابتدعتها عقول ، اختلت موازينها ، وفقدت قدرتها على التفكير والفهم الصحيحين ·

ان شخصية الرسول يجب أن تكون قادرة على الوقوف بنفسها فاذا استطاعت ذلك فهى غير محتاجة الى خوارق ، واذا لم تستطع فالخوارق لا تكون فى هذه الحالة غير انتقاص من صحة الروايات كلها اذ أنها تدخل فيها عنصرا لا يمكن تصديقه(٣) ·

---

(٣) الاسلام ـ الفريد جيوم ـ ترجمة محمد مصطفى هواره ، ودسوقى اليمانى السكرى ص ٢٤ ·

وليس يفهم من ذلك أن حياة الرسول كانت خلوا من الخوارق لا ، انما المهم ان تأسيس اليقين فى قلوب الموقنين ، واستئصال العدوان من نفوس المعتدين كان العامل الفعال فيه بشرا اكتملت فى هدايته وخلقه عناصر الكمال الانسانى وانتهت الى شخصيته أمجاد الفطرة البشرية الناصعة ·

ثم ان الحديث الصحيح يشترط فى متنه خلوه من الشذوذ والعلل القادحة وانكان سنده قائما(٤) ·

والحق أنه كان يجب سد الأسماع عن مثل هذه الروايات ، وعلى الصحف دونها وتطهير تاريخنا الثقافى من ذلك اللغو العريض ·

ولكن علماءنا ـ عفا الله عنهم ـ تساهلوا فى الانصات لمثل هذه الروايات وانشغلوا بنقلها حينا ، وبتأويلها حينا ، وحينا بتزييفها !!

والتساهل فى سماع هذه الروايات هو الذى أعطى مادة الجدل والافتراء لعصابات المبشرين والمستشرقين ومغشوشى الضمائر ·· ونحن وحدنا المسئولون(٥) ·

---

(٤) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد المستشرقين ـ الشيخ محمد الغزالى ص ٦٨ ·

(٥) نظرات فى القرآن ـ الشيخ محمد الغزالى ص ٤٨ · ط ٢ ·

شد الازار وستر العورة

جاء فى كتب السيرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لقد رايتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ ازاره وجعله فى رقبته يحمل عليها الحجارة ، فانى لأقبل وأدبر اذ لكمنى لاكم ما أراه (المقصود انه من الملائكة) لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك ازارك ، فأخذته فشددته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وازارى على من بين أصحابى .

كما روى كتاب السيرة أيضا أن قد وقع له صلى الله عليه وسلم مثل ذلك عند اصلاح أبى طالب لزمزم فعن ابن اسحاق أيضا قال : كان أبو طالب يعالج (يصلح) زمزم وكان النبى (ص) ينقل

الحجارة وهو غلام فأخذ ازاره واتقى به الحجارة فغشى عليه ، فلما أفاق سأله أبو طالب فقال : أتانى آت عليه ثياب بيض فقال لى استتر · فما رؤيت عورته منذ يومئذ ·

ثم عاد ابن اسحاق يروى كيف نهى صلى الله عليه وسلم عن التعرى وكشف العورة من قبل أن ينزل عليه الوحى بخمس سنين وذلك عند اعادة بناء الكعبة(١) · وقد جاء فى السيرة الشامية أن مغلطاى استبعد أن يتكرر هذا وقال بانه صلى الله عليه وسلم اذا نهى عن شىء مرة لا يعود اليه ثانية بوجه من الوجوه(٢) ·

وهكذا وبرغم عدم أهمية الموضوع الا أن كتاب السيرة ورواتها تناقلوه فى كتبهم ومدوناتهم . والمعقول أن النهى عن التعرى قد يكون مقبولا وهو فى طفولته وصباه اى وهو غلام اما وهو رجل ناضج متزوج وفى حوالى الخامسة والثلاثين وعلى أعتاب الرسالة ، وسبق أن نصح وهو غلام وقيل أن عورته لم تر بعد ذلك ـ فأمر غير مقبول ولا معقول ·

ولكن كتاب السيرة كانوا يكتبون كل ما يصل الى آذانهم من روايات مهمة أو تافهة ، صادقة أو كاذبة ، صحيحة أو غير صحيحة ، دون نقد أو تمحيص ، وجاء المقلدون من بعدهم فرأوا أن السبق الزمنى يخلع على أخبار السابقين قداسة الحق ، وسلطان البرهان فالتزموها وتقيدوا بها ، وسلبوا انفسهم خاصة الانسان ، خاصة البحث والنظر(٣) ·

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣٩/١ و ٣٧٨ وصحيح البخارى ـ كتاب الصلاة برواية جابر ·

(٢) سبل الهدى والرشاد (السيرة الشامية) ·

(٣) من توجيهات الاسلام ـ الشيخ محمود شلتوت ص ١٤٢ ·

سن السيدتين خديجة وعائشة رضى الله عنهما

فى التاريخ العربى الاسلامى فجوات وثغرات ـ كما رأينا ـ فى حاجة الى أن تتناولها الأقلام والأفكار بالبحث العلمى ، والدراسات الهادفة ، والتمحيص الدقيق حتى تعلو بها الى أفق المنطق ، وتسمو بها الى الدقة الصادقة · ومن هذه الثغرات اهمال الرواية فى ربط الأحداث بتواريخها الصحيحة ، وعدم استهداف المنطق العلمى فى التحديث عن أعمار الشخصيات التاريخية ، فلقد اتجهت عناية مؤرخينا الى العناوين والكليات دون التفات الى الدقائق والتفاصيل والجزئيات ، مع ما تستطيع أن تقدم لنا هذه الدقائق والجزئيات من ضوء مبين ينير السبيل الى تفهم الكثير الغامض من حوادث التاريخ ·

ومثال ذلك ما تحدثنا به الروايات التاريخية عن سن السيدة خديجة رضى الله عنها ، وأنها كانت يوم أن تزوج بها الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغت الأربعين من عمرها ، وأن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت فى التاسعة من عمرها يوم زواجها من النبى (ص) ، والسن فى الحالتين ـ كما نرى ـ لا يقرهما المنطق ولا يرضى عنهما العقل ، ولا تتفقان مع الواقع التاريخى(١) ·

فى حالة السيدة خديجة :

أولا : لم يذكر ابن اسحاق وابن هشام شيئا عن سن السيدة خديجة · وهذا الكتاب من اقدم ما كتب عن السيرة ووصلنا ·

ثانيا : ذكر ابن سعد فى الطبقات الكبرى روايتين : واحدة أنها كانت فى الثامنة والعشرين والثانية أنها كانت فى الأربعين ·

نذكر نص الروايتين فيما يلى :

الأولى : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب عن أبيه أبى صالح عن ابن عباس قال : كانت خديجة يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنة ثمان وعشرين سنة ·

الثانية : قال محمد بن عمر : ونحن نقول ومن عندنا من أهل العلم أن خديجة ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة وأنها كانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة ·

أخبرنا محمد بن عمر : أخبرنا المنذر بن عبد الله الحزامى عن موسى بن عقبة عن أبى حبيبه مولى الزبير قال : سمعت حكيم بن حزام يقول : تزوج رسول الله (ص) خديجة وهى ابنة اربعين سنة ورسول الله (ص) ابن خمس وعشرين سنة وكانت خديجة أسن

---

(١) انظر خديجة زوجة الرسول ـ طه عبد الباقى سرور ص ٣٦ ·

منى بسنتين ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة وولدت انا قبل **الفيل** بثلاث عشرة سنة(٢) ·

وبالنظر الى تلك الروايات نجد أن الرواية الأولى مصدرها **هشام** بن محمد بن السائب الكلبى : يذكر الذهبى عنه أن أحمد بن **حنبل** والدراقطنى وابن عساكر ذكروا أنه لا يوثق به(٣) · وكان **يروى** عن والده الذى اتهم بالكذب والضعف والذى كان من أصحاب **ابن** سبأ الذى كان يقول ان على بن أبى طالب لم يمت وأنه راجع **الى** الدنيا(٤) · واعتبره ابن الجوزى من كبار الوضاعين(٥) · **ويذكر** الألبانى أن هشام هذا هو ابن محمد بن السائ ب الكلبى النسابة **المفسر** وهو متروك · قال عنه الدارقطنى وغيره والده محمد بن **السائب** شر منه · قال الجوزجانى وغيره : أنه كاذب ، وقد اعترف **هو** نفسه انه يكذب : روى البخارى بسند صحيح عن سفيان الثورى **قال** : قال لى الكلبى : كل ما حدثتك عن أبى صالح فهو كذب ! وقال **حبان** مذهبه فى الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج الى الاغراق فى وصفه ، ويروى عن أبى صالح عن ابن عباس التفسير **وابو** صالح لم ير ابن عباس ولا سمع الكلبى من أبى صالح ، لا يحل **ذكره** فى الكتب فكيف الاحتجاج به(٦) · وذكر العجلونى وابن الربيع **ان الامام** أحمد وصف تفسير الكلبى« من أوله الى آخره كذب · قيل

---

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٦/٨ (طبعة بيروت) ·

(٣) الميزان ٣٠٤/٤ ·

(٤) وفيات الأعيان ٤٣٦/٣ والمدخل الى دلائل النبوة للبيهقى ٤٩/١ **لتحقيق** السيد أحمد صقر هامش الصفحة ·

(٥) تفسير الجواهر ٥٠/١٦ والفوائد المجموعة للشوكانى ص ٤٢٦ ، وكتاب تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة لمحمد البشير ظافر الأزهرى ص ٢٥ واللالىء المصنوعة فى الاحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطى ٤٧٣/٢ ·

(٦) سلسلة الأحاديث الموضوعة لمحمد ناصر الدين الالبانى ١١/٢ **والشوكانى** ص ٣١٥ ·

فيحل النظر فيه قال لا »(٧) · واعتبره السيوطى كذاب(٨) · وذكر الصفدى عنه أن عبد الرحمن بن مهدى قال عنه سمعت أبا جزء يقول : قال الكلبى : كان جبريل يوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقام لحاجه وجلس على فأوحى جبريل الى على(٩) · واعتبره الذهبى من المتروكين الغير موثوق بهم فلم يدخله فى عداد حفاظ الحديث(١٠) واعتبره ابن الخطيب من المتروكية أيضا(١١) ·

أما الرواية الثانية فمصدرها محمد بن عمر الواقدى : الذى يضعفه السخاوى(١٢) وذكر الذهبى أن أحمد بن حنبل قال عنه : هو كذاب يقلب الأحاديث ، وقال عنه ابن معين ليس بثقة ، وقال عنه البخارى وأبو حاتم : انه متروك · وقال عنه أبو حاتم والنسائى : انه يضع الحديث ، وقال عنه الدارقطنى : فيه ضعف ، وقال عنه ابن عدى : أحاديثه غير محفوظة والبلاء منه ، وقال عنه أبو غالب ابن بنت معاوية بن عمرو : سمعت الدائنى يقول : الواقدى يضع الحديث · وقال أبو داود : بلغنى أن على بن المدينى قال : كان الواقدى يروى ثلاثين الف حديث غريب ، وقال المغيرة بن محمد المهلبى : سمعت المدينى يقول : لا أرضاه فى الحديث ولا فى الأنساب ولا فى شىء ، وقال ابن راهوية : هو عندى ممن يضع الحديث ، وينتهى الذهبى الى أن الاجماع استقر على وهن الواقدى(١٣) ولذلك فلم يسق ترجمته فى تذكرة الحفاظ لاتفاقهم على ترك حديثه(١٤) ·

---

(٧) كشف الخفاء للعجلونى ٤٠٢/٢ وتمييز الطيب من الخبيث لعبد الرحمن بن على الديبغ الشيبانى ص ٢٥٠ ·

(٨) قانون الموضوعات والضعفاء لمحمد طاهر بن على الهندى ص ٢٩٠ ·

(٩) الوافى بالوفيات ٨٣/٣ ·

(١٠) تذكرة الحفاظ ٣٤٣/١ ·

(١١) تاريخ بغداد ٤٥/١٤ ·

(١٢) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى ص ١١٧ ·

(١٣) الميزان ٦٦٣/٣ وارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الادباء) لياقوت الرومى ٥٥/٧ ·

(١٤) تذكرة الحفاظ ٣٤٨/١ ·

وقد اتهمه المحدثون بأنه أغرب على الرسول بعشرين الف حديث وأنه كان يروى المناكير(١٥) ، وذكر ابن خلكان ان العلماء تكلموا فيه (١٦) وقال النسائى والبخارى : الكذابون المعروفون بوضع الحديث اربعة : ابن أبى يحيى فى المدينة ، والواقدى ببغداد ، ومقاتل ابن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام(١٧) · وذكر الخطيب أنه مع سعة علمه كان لا يحفظ القرآن وقال عنه الخليفة المأمون : هذا الرجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل(١٨) · وقال عنه البخارى : انه متروك الحديث(١٩) · وذكر العجلونى وابن الدبيغ أن الشافعى قال : ان كتب الواقدى كذب(٢٠) · وذكر ابن حجر فى لسان الميزان أن الامام أحمد قال : ثلاثة كتب ليس لها اصول : وهى المغازى والتفسير والملاحم فهى أودية (أى ملتقى) الاحاديث الضعيفة والموضوعة اذا كانت العمدة فى المغازى على مثل الواقدى ، وفى التفسير على مثل مقاتل والكلبى ، وفى الملاحم على الاسرائيليات(٢١) · وطعن العلامة ابن خلدون فى الواقدى وحذر من كتبه وما فيها من تزييف(٢٢) ·

وهكذا نجد أن مصدر أو سند الروايتين ضعيف مجروح ، ومع ذلك فقد تناقل كتاب السيرة كاتب عن كاتب الرواية الثانية .

---

(١٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ١١/١ ·

(١٦) وفيات الأعيان ٤٧٠/٣ ·

(١٧) البخارى فى كتاب الضعفاء والجواهر فى تفسير القرآن ٥٠/١٦ والسنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى د. مصطفى السباعى ص ١١٥ ·

(١٨) تاريخ بغداد ٧/٣ ·

(١٩) تاريخ بغداد ٣٢١/٥ وعيون الأثر لابن سيد الناس ٨/١ ·

(٢٠) كشف الخفاء للعجلونى ٤٠٢/٢ وتمييز الطيب من الخبيث لابن الربيع ص ٢٥٠ ·

(٢١) تاريخ بغداد ١٤/٣ ـ والتاريخ الصغير للبخارى ص ٢٢٨ ·

(٢٢) تاريخ ابن خلدون ٣/١ ـ طبعة دار الكتاب اللبنانى ·

وأهملوا الرواية الأولى التى قد تكون أقرب الروايات الى الصحة(٢٣) ٠

ثالثا : ثم نجد الرواية التالية تتكرر فى أكثر من مرجع : تقول الرواية « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم المؤمنين خديجة بعد موت القاسم ، وهى تبكى فقالت : يارسول الله درت لبينة القاسم فلو كان عاش حتى يستكمل الرضاعة لهون على ٠ فقال : ان له مرضعا فى الجنة ٠ فقالت لو أعلم ذلك لهون على ٠ فقال : ان شئت أسمعتك صوته فى الجنة فقالت : بل أصدق الله ورسوله(٢٤) ٠

وهذا الحديث المتبادل ـ ان صح وبصرف النظر عن اسم الطفل المذكور ففيه خلاف ـ لا يكون الا بعد النبوة ٠

رابعا : الثابت أن السيدة خديجة أنجبت ولدها الأخير (عبد الله) بعد النبوة وتوفى صغيرا ، وقد عير بعض المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبتر عقب وفاة أطفاله الذكور فنزلت سورة الكوثر ، وهى الخامسة عشر فى ترتيب نزول القرآن ٠

من كل ذلك يتأكد أن السيدة خديجة قد حملت ووضعت بعد النبوة ، واذا كانت قد تزوجت النبى وهى فى الأربعين فمعنى ذلك أنها كانت تنجب للرسول لمدة سبعة عشر عاما من زواجها أى وهى فى السابعة والخمسين من عمرها ، وهذا شىء يستبعده العلم قديما وحديثا ٠

---

(٢٣) فقه سيرة نساء النبى ـ سعيد هارون عاشور ص ٢٢ ٠

(٢٤) انظر هامش ١٩٦/١ من سيرة ابن هشام تحقيق د٠ فهمى السرجانى نقلا من مسند الفريانى ، وكذلك هامش ١٢٧/١ من كتاب هداية البارى الى ترتيب أحاديث البخارى ، ونوه عنها القسطلانى فى المواهب اللدنية ١٩٦/١ كما ذكرها ابن ماجه فى سننه حديث رقم ١٥١٢ كتاب الجنائز ٠

وعلى ذلك فلا يبقى أمامنا الا الأخذ بالرواية الأولى التى تقول ان السيدة خديجة كانت فى الثامنة والعشرين من عمرها يوم تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى رواية وان كانت ضعيفة السند الا أن متنها يؤيده الدليل الواقعى ، دليل انجاب السيدة خديجة لمدة سبعة عشر عاما بعد زواجها من النبى (ص) أى وهى فى سن الخامسة والأربعين لا سن السابعة والخمسين كما تقول الرواية الثانية ٠ هذا بالاضافة أن البيهقى قد ذكر فى « دلائل النبوة » رواية عن مصعب بن عبد الله الزبيرى أن خديجة رضى الله عنها قد بلغت خمسا وستين سنة ويقال خمسين وهو أصح ، كما ذكر ابن كثير نقلا عن البيهقى عن الحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى الخامسة والعشرين حين تزوج خديجة وكان عمرها اذ ذاك خمسا وثلاثين ، وقيل خمسا وعشرين سنة(٢٥) ٠ وأورد ابن عساكر فى التاريخ الكبير (٣٠٢/١) أن ابن شهاب الزهرى قال عن طريق الزبير ابن بكار أن عمرها كان يوم زواجها ثلاثين سنة ٠ وذكرت السيرة الشامية أن السيدة خديجة كان عمرها رضى الله عنها أربعين سنة وصححه فى الغرر المضيئة وقيل خمسا وأربعين وقيل ثلاثين وقيل ثمانية وعشرين(٢٦) ٠ وذكر ابن كثير فى السيرة النبوية (٥٩٧/٤) أن ابن عساكر روى عن ابن عباس أن عمرها كان ثمانيا وعشرين سنة ٠

ونخرج من كل ذلك أنها رضى الله عنها كانت عند زواجها بالنبى (ص) بين الخامسة والعشرين والثامنة والعشرين أو الثلاثين على الأكثر ٠

ويتفق معنا فى هذا د ٠ صالح أحمد العلى فيقول أن الأرجح ان عمرها كان أقل من الأربعين كيما يمكن أن تنجب هؤلاء الأولاد

---

(٢٥) دلائل النبوة ٤٢٢/١ تحقيق السيد أحمد صقر ـ وانظر أيضا أحمد رسول الله سيرته وآثاره فى الحضارة لجلال مظهر ص ٤٥ ـ والسيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ٢٦٤/١ ٠

(٢٦) السيرة الشامية ٢٢٥/٢ ٠

بصورة اعتيادية ، وان كانت هى على أى حال أكبر من الرسول · ومن المألوف فى الشرق أن الرجل اذا تزوج بسيدة أكبر منه سنا فان الناس تقول أنها عجوز أو بقدر أمه مع أنها قد لا تزيد عنه أكثر من سنة أو سنوات قليلة(٢٧) ·

فى حالة السيدة عائشة :

وتختلف الأقوال أيضا فى سن السيدة عائشة رضى الله عنها يوم زفت الى النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة الثانية للهجرة · فيحسبها بعضهم تسعا ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات ، وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد ، والأرجح عندنا ـ كما يقول العقاد ـ أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها الى النبى عن الثانية عشرة ولا تجاوز الخامسة عشرة بكثير ، فقد جاء فى بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهى فى التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم الا بعد فترة بلغت خمس سنوات على أشهر الأقوال ، يؤيد هذا الترجيح أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن خطبة النبى لها كانت فى نحو السنة العاشرة للدعوة : فاما أن تكون خطبت لجبير بن مطعم(٢٨) لأنها بلغت سن الخطبة وهى قرابة التاسعة أو العاشرة ، وهذا بعيد جدا أن تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع اختلاف الدين بين الأسرتين · واما أن تكون وعدت لخطيبها جبير وهى وليدة صغيرة كما يتفق أحيانا بين الأسر المتآلفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلما عند ذلك ويستبعد أيضا أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الاسلام ،

(٢٧) محاضرات فى تاريخ العرب ـ د. صالح احمد العلى ٢٣٦/١ ·

(٢٨) انظر مسند ابن حنبل ٢١٠/٦ ـ طبقات ابن سعد ٤٠/٨ ـ التاريخ الكبير لابن عساكر ٣٠٣/١ ـ الاصابة لابن حجر ١٣٩/٨ ـ وتلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير لعبد الرحمن بن الجوزى ص ١٠ ـ والمواهب اللدنية للقسطلانى ٢٠٣/١ ·

فاذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد وافق على خطبتها على جبير قبل اسلامه (اسلام أبى بكر) فمعنى ذلك أنها كانت قد ولدت قبيل الدعوة وقبيل اسلام ابى بكر فتكون بذلك قد ناهزت العاشرة يوم جرى حديث خطبتها وزواجها للنبى عليه الصلاة والسلام · ولهذا يرجح العقاد أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت للنبى ، وأنها رضى الله عنها كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها ـ لأنها لم تقرأها فى وثيقة مكتوبة ـ فكان يعجبها ـ على سنة الأنوثة الخالدة ـ أن تأخذ بأصغر التقديرات ، وكانت هى كثيرا ما تدل بالصغر بين أترابها وضرائرها فلا تنسى اذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول : وكنت يؤمنذ جارية حديثة السن أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئا من القرآن ·· الى أشباه ذلك من أحاديثها فى هذا المعنى · ذلك هو التقدير الراجح كما يقول العقاد الذى ينفى ما يقوله المستشرقون على النبى صلى الله عليه وسلم بصـــدد زواجه بعائشة من سن مبكرة(٢٩) ·

ولعل قائلا يقول ان الاسلام لم يكن قد حرم زواج المسلمة بالمشرك حين أرسل النبى يخطب عائشة التى كانت قدخطبت لجبير ابن مطعم بن عدى · ونقول أن أبا بكر حينما بلغه أن النبى يرغب فى خطبة عائشة لم يقبل فورا ، انما أرجأ البت فى الأمر لحين الرجوع الى المطعم بن عدى يسأله ما موقفه من الخطبة التى كانت قد تمت بين جبير وعائشة · وحكمة السؤال هنا واضحة : فالاتفاق كان قد تم بينهما حينما كانت العلاقة بينهما طيبة ، والود قائما ، أما بعد اسلام أبى بكر فالموقف يحتاج الى تحديد جديد واعادة نظر ، لأن الاسلام كان سببا فى احداث تغيير فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، يؤيد ذلك أن والدة جبير قالت لأبى بكر ان الزواج لن يتم خشية أن يكون سببا فى دخول ابنها جبير فى الاسلام ووافقها المطعم على ذلك · وبذلك انفسخت الخطبة · وهذا مما يؤكد أن خطبة المطعم ابن عدى لعائشة على ابنه جبير كانت قبل اسلام أبى بكر أما وقد

(٢٩) الصديقة بنت الصديق ـ عباس العقاد ص ٤٢ وما بعدها ·

أسلم فقد انقطع حبل الود الذى كان قائما بين الأسرتين ، وانتفى السبب الذى من أجله تم الصهر بينهما(٣٠) ٠

ومعنى ذلك أن عائشة كانت قد ولدت قبل البعثة وتكون قد بلغت العاشرة يوم جرى حديث خطبتها للنبى أو نحو ذلك ٠

وتناول مولاى محمد على ، والأستاذ عبد الحميد جوده السحار هذا الموضوع فقالا : من الثابت أن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم تكبر عائشة بخمس سنوات ، ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام اعادة بناء الكعبة أى قبل أن يبعث النبى بخمس سنوات(٣١) ٠ فتكون عائشة قد ولدت سنة نزول الوحى فكانت سنها لا تقل عن العاشرة عندما خطبها النبى فى السنة العاشرة للرسالة، وان شهادة عائشة نفسها لدليل على ذلك، فقد قالت انها كانت تلعب مع أترابها عند نزول سورة القمر ، وهى السورة الرابعة والخمسون ، وأنها كانت تحفظ بعض آيات السورة وهذه السورة لم تنزل الا فى السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل من أنها كانت تبلغ السادسة فى السنة العاشرة للرسالة عندما خطبها النبى ان هو الا قول كاذب ، والا كان مولدها يوم نزول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها أنها حفظت بعض آياتها عند نزولها ٠

(٣٠) وقد حدث ذلك أيضا مع أبى لهب الذى فسخ خطبة ولديه بابنتى رسول الله بعد النبوة حين تحولت العلاقة بينهما من ود ومرحمة الى عداوة ومناغضة .

(٣١) صفة الصفوة لعبد الرحمن بن الجوزى ٥٧/١ ـ الوفا بأحوال المصطفى لنفس المؤلف ٦٥٦/٢ والأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ليوسف بن اسماعيل النبهانى ص ١٤٦ ٠

ومن هذا كله يفهم أن سنها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها النبى ، ولما كانت المدةبين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات ، فما دخل النبى بها الا فى السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سنها يوم بنائه بها خمسة عشر عاما ٠ أما دعوى أنها كانت فى السادسة عند عقد الزواج وأن النبى بنى بها وهى فى التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والزواج كانت ثلاثة أعوام وهذا خطأ تاريخى لا شك فيه(٣٢) ٠

كما أكد الدكتور على حسنى الخربوطلى أن سن السيدة عائشة رضى الله عنها كان عند الزفاف خمسة عشر عاما(٣٣) ٠

وللشيخ محمود النواوى مراقب عام التعليم الثانوى بالأزهر مقال فى مجلة الوعى الاسلامى (السنة الثالثة عدد ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٧ هـ) يذكر أن أبا بكر قال لوالدى جبير : ما تقولان فى شأن عائشة ؟ فقالا : لعلنا ان انكحنا هذا الصبى اليك تدخله فى دينك الذى أنت عليه ، فلا حاجة لنا فى عائشة ٠ ويستند الكاتب على رواية لابن سعد بأن سنها كان نحو اثنتى عشر سنة ، وأنه يميل الى هذه الرواية ٠ وتعلق المجلة أن قول المطعم يقطع بأن الخطوبة تمت قبل أن يسلم أبو بكر ٠ وان عائشة بذلك تكون وقت الدخول بها قد تجاوزت الأنثتى عشرة سنة قطعا ٠

(٣٢) محمد رسول الله ـ مولاى محمد على ترجمة مصطفى فهمى وعبد الحميد جودة السحار ص ٢٧١ ، وأيضا فى « الفكر الخوالد » لنفس المؤلف ترجمة مأمون نجا ص ٥٣ ، وكذلك كتاب محمد رسول الله والدين عند لعبد الحميد السحار ٣٠٣/١٥ ٠

(٣٣) هامش صفحة ١٠١ من « كتاب حياة محمد » لواشنطن ارفنج ترجمة د. على حسنى الخربوطلى ٠

سريــة الدعــوة

تذكر بعض الروايات فى كتب السيرة أن الدعوة للاسلام بدأت سرية لمدة تبلغ حوالى ثلاث سنوات الى أن قوى الاسلام ببعض الأشخاص مثل حمزه بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ونزلت آية « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (الحجر ٩٤) وأنه صلوات الله وسلامه عليه اتخذ مركزا سريا يجتمع فيه وأصحابه الأولون وهو دار الأرقم ·

وكيف يمكن التسليم بهذا وتصديقه وآيات سورة العلق وهى أول سورة نزلت من القرآن فيها آيات تدل دلالة قاطعة على أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ منذ تكليفه بالنبوة يدعو الناس جهرة

ويصلى لله أمام الجميع ، وكذلك آيات سورة المدثر وهى السورة الرابعة فى ترتيب النزول « يا أيها المدثر قم فانذر » ولاشك أنه أطاع وفعل .

روى الطبرى حديثا عن عفيف الكندى ـ من ثلاث طرق . يقول أن عفيف الكندى قدم الى مكة ، وأتى العباس بن عبد المطلب الذى كان صديقا له : يقول عفيف « فبينما نحن عنده اذ خرج رجل يصلى فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه ، فقلت يا عباس ، ما هذا الدين ؟ قال هذا محمد بن عبد الله يزعم ان الله أرسله به ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه على بن أبى طالب آمن به . قال عفيف : فليتنى كنت آمنت يومئذ فكنت أكون رابعا »(١) .

وروى أحمد بن حنبل هذا الحديث فى مسنده برقم ١٧٨٧ باختلاف قليل فى بعض الالفاظ ، وان هذا حدث فى منى .

وأورد الواحدى فى أسباب نزول قوله تعالى « فليدع ناديه سندع الزبانية » وهما الايتان ١٧ ، ١٨ من سور العلق ، أنهما نزلتا فى ابى جهل ، ويذكر بعد الاسناد عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا التصرف ؟ فانصرف اليه النبى(ص) فزبره (أى نهره) فقال أبو جهل : والله انك لتعلم ما بها ناد أكثر منى ، فانزل الله تعالى : « فليدع ناديه ، سندع الزبانية » ـ قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله تبارك وتعالى .

كما ذكر الواحدى فى سبب نزول قوله تعالى « ذرنى ومن خلقت وحيدا » بعد الاسناد عن ابن عباس رواية وعن مجاهد رواية ملخصها

(١) تاريخ الطبرى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة دار المعارف ٣١١/٢ وانظر أيضا الوفا بأحوال المصطفى لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ١٦٧/١ .

أن الوليد بن المغيرة سمع من النبى قرآنا ، وكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، واستنكر ذلك منه ، واستنفره وأثاره وخوفه من معايرة قومه له وأحماد حتى يقول فى محمد صلى الله عليه وسلم قولا يبلغ قومه أنه منكر لمحمد وكاره له ، ففكر الوليد وقدر ثم اتهم محمدا بالسحر ، فنزلت « فذرنى ومن خلقت وحيدا »(٢) وهى الآية الحادية عشر من سورة المدثر وهى الرابعة فى ترتيب النزول كما ذكرنا .

ومعنى ذلك أنه (ص) لم يكن يتخفى ، وأن تلك العلانية هى التى جعلت قريشا وعلى رأسها أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة وغيره يتصدون له ليمنعوه ،وأنهم لجأوا الى مجادلته ، ومحاولة اغرائه بالمال والسلطان ، كما لجأوا الى عمه أبى طالب لمحاولة اقناعه بالعمل على منع ابن أخيه من الاستمرار فى اعلان دعوته ، حتى وصل بهم الامر الى حد الاعتداء عليه وايذائه ، وان الله أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعدم المبالاة والاستمرار فى خطته مع توجيه انذار قاصم لهذا الزعيم المتصدى بقوله تعالى (أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى ، أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت ان كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب) من ٩ ـ ١٩ من سورة العلق .

وفى سورة القلم (الثانية فى ترتيب النزول) آيات (فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف مهين) (٨ ـ ١٠ القلم) ـ والمزمل (الثالثة فى ترتيب النزول) ايات (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) (١٠ ـ ١٣ المزمل) .

(٢) أسباب النزول ـ أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ص ٢٩٥ و ٣٠٣ .

تدل هذه الآيات التى نزلت مبكرة جدا دلالة قاطعة على أن الجدل والصجاج بين الكفار والنبى صلى الله عليه وسلم وبخاصة زعمائهم قد بدأ مبكرا ولا يكون هذا الا نتيجة لدعوة النبى الناس وتلاوة القرآن عليهم جهرة ، واستمر هذا الأسلوب بدون انقطاع ، وبرغم عنف العداوة بين التوحيد والشرك الا ان النبى (ص) حاول جاهدا أن يلطف من حدتها وأن يتجنب مضاعفاتها وأن يضفى من فضله ونبله على من حوله فهو يصل من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويصابر السفهاء ، ويلين للمتماغبين . لكن ذلك كله لم يجد نفيلا مع من اتخذ الهه هواه »(٣) ، فاضطر الرسول (ص) الى تجنب الزعماء البتة مؤقتا دون ان يقطع معهم الحبل بما قد تفيده آية سورة المزمل (الثالثة فى النزول) « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (الآية العاشرة) . وتفسر دعوته مؤقتا على من توسم فيهم الخير والاستجابة وأنه أعفاهم من اعلان اسلامهم حتى لا يلقوا ضريبة التعذيب والاضطهاد من قريش . فكان الرسول يدعو الى الله تعالى جهرا ، وفى نفس الوقت كان يغزو صفوف الكفار برجاله الذين يعلنون اسلامهم ، حتى أصبح كل واحد من الكفار يشك فى ايمان الرجل الذى الى جانبه ، يؤيد ذلك ما رواه الطبرانى عن حصين بن عبيد بن رفاعة الخزاعى الذى كانت قريش تعظمه فجاؤوه وطلبوا منه أن يتوسط لدى رسول الله (ص) ليكف عن ذكر آلهتهم بسوء . فلما جاء قال له رسول الله (ص) ياحصين كم تعبد من اله ؟ قال : سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء . قال : فاذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء ؟ قال : فيستجيب لك وحده وتشرك معه ؟ فلم يقم حصين من مجلسه حتى أسلم . فقام ابنه عمران فقبل رأسه ويديه فرحا باسلامه . وهذا يدل على أن ابنه دخل الاسلام قبله ولم يكن والده يعرف ذلك .

هذا وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلوا ـ كما روى ابن اسحاق ـ ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله

---

(٣) تأملات فى الدين والحياة ـ الشيخ محمد الغزالى ص ١٢٣ .

(ص) فى شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون . فتذاكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير (عظم الفخذ) فشجه فكان أول دم أريق فى الاسلام . وهذا ما كان رسول الله يحب أن يتلاشاه سيما والمسلمون يومئذ قلة .

واذا قيل أنه وردت أقوال لبعض أصحاب رسول الله مثل ما روى عن عمر بن الخطاب فى قصة اسلامه حيث سأل بعد اسلامه « أنحن على حق أم باطل ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل على حق . فقال عمر : فيم التخفى اذن ! ومثل ماروى عن ابن مسعود انه قال « مازلنا أعزة منذ اسلم عمر ، ولقد رأيتنا ومانستطيع أن نصلى بالكعبة ظاهرين أمنين حتى أسلم عمر » .

فانا نقول ان النبى ـ حماية لأصحابه واشفاقا عليهم ـ كان يلزم الحذر فى جمعهم سواء للصلاة أو للدراسة أو لسماع القرآن أو ليعلمهم ما يهمهم من أمر دينهم فكان يجتمع بهم بدار الارقم لانه لم يكن ممكنا ان يجتمع بهم فى دار الندوة أو عند الكعبة كما اعتاد أهل مكة . وذلك حتى يتجنب ويجنبهم اثارة الكفار أو الاصطدام بهم ، وهذا على ما نعتقد هو الذى جعل الامر يلتبس على بعض المؤرخين فحسبوا أن الدعوة كانت سرية وما كانت كذلك .

وانا اذ نقرأ الآية الكريمة « ودوا لو تدهن فيدهنون » وهى الآية التاسعة من سورة القلم الثانية فى ترتيب النزول وغيرها من ايات الردع والترهيب فانه يتبادر الى الذهن ان جنوح بعض زعماء قريش الى طلب المداهنة والملاينة من النبى عليه الصلاة والسلام ووعدهم بالمقابلة بالمثل منذ عهد مبكر ، واستمرارهم على ذلك يدل على أنهم لم يكونوا يجدون فى أنفسهم من القوة ما يستطيعون به ارغامه على الكف عن دعوته ، والاعتدال فى تنديداته وحملاته على الشرك والوثنية ، كما يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لديه من الجرأة والقوة الروحية والشجاعة ، والاستغراق فى الله ، ما يجعلله يظل يعلن ، ويقذف بنذر القرآن وحملاته فى وجوههم ، ويقرع بها آذانهم منذ بدء الدعوة دون فتور أو هوادة .

الهجـــرة

فى الهجرة النبوية من مكة الى المدينة تعرض كثير من المؤرخين وكتاب السيرة لنقل روايات غريبة لو صحت لأفسدت الخطة السرية التى تكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هجرته على جميع الناس · وكان الكتمان عادته . فقد كان (ص) اذا وضع خطة لغزوة ورى بغيرها ولم يفش سرها لأقرب الناس اليه . فكيف بخطة الهجرة . وقريش وأعوانها قد تآمروا عليه ويطلبونه حيا أو ميتا ، ويخصصون لمن يأتى به مائة من الابل ·

لذلك فانه (ص) قد أحكم خطة هجرته احكاما دقيقا ، وأعد لكل فرض عدته ولم يدع فى حسبانه مكانا للحظوظ العمياء « وهذا شأن المؤمن مع الأسباب المعتادة . أن يقوم بها كأنها كل شىء فى

النجاح ثم يتوكل بعد ذلك على الله لأن كل شيء لا قيام له الا بالله ، فاذا استفرغ المرء جهوده فى أداء واجبه فأخفق بعد ذلك فان الله لا يلومه على هزيمة بلى بها ، وقلما يحدث ذلك الا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه · وكثيرا ما يرتب الانسان مقدمات النصر ترتيبا حسنا ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمرات : كالسفينة التى يشق عباب الماء بها ربان ماهر فاذا التيار يساعدها والريح تهب الى وجهتها فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهى الى غايتها فى أقصر من وقتها المقرر · وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة جرت على هذا الغرار(١) ·

فقد استبقى رسول الله (ص) معه عليا وأبا بكر ، وأذن لسائر المؤمنين بالهجرة الى المدينة ، فأما أبو بكر فان الرسول (ص) قال له حين أستأذنه ليهاجر : لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا · وفهم أبو بكر طبعا أن الرسول يعنيه بذلك . فابتاع راحلتين أخذ يعلفهما أربعة أشهر اعدادا لذلك · أما على فان الرسول (ص) هيأه لدور خاص يؤديه فى هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر ·

ولننظر الى ما أورده ابن هشام من رواية ابن اسحاق : يقول ابن اسحاق فحدثنى من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت : كان لا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، اما بكرة واما عشيا . حتى اذا كان اليوم الذى أذن الله فيه رسوله فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتانا رسول الله (ص) بالهاجرة متقنعا فى ساعة كان لا يأتى فيها · قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله (ص) فى هذه الساعة الا لأمر حدث (يقصد هام) · فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره (مكان جلوسه) فجلس رسول الله (ص) وليس بوجد الا أنا وأختى أسماء . فقال رسول الله (ص) أخرج عنى من عندك · قال يارسول الله انما هما ابنتاى · وما ذاك فداك

(١) فقه السيرة ـ الشيخ محمد الغزالى .

أبى وأمى · قال : ان الله أذن لى بالخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله ، قال : الصحبة · قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبابكر يومئذ يبكى · ثم قال أبو بكر : يانبى الله ان هاتين الراحلتين كنت أعددتهما لهذا · ثم استأجرا ابن اريقط وهو مشرك يدلهما على الطريق ، ودفعا اليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما ·

قال ابن اسحق : ولم يعلم ـ فيما بلغنى ـ بخروج رسول الله (ص) حين خرج ـ يقصد نوى الخروج ـ الا على وأبو بكر وآله · أما على فان رسول الله (ص) أمره أن يتخلف حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله (ص) ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه الا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ·

« و يلاحظ أن النبى (ص) كتم سره ، فلم يطلع عليه الا من لهم صلة ماسة ، ولم يتوسع فى اطلاعهم الا بقدر العمل المنوط بهم · كما استأجرا دليلا خبيرا بطرق الصحراء ليستعينا بخبرته على مغالبة الطاردين . ونظرا فى هذا الاختيار الى الكفاية وحدها : فاذا اكتملت فى أحد ـ ولو كان مشركا ـ استخدماه وانتفعا بموهبته ·

ثم أمر الرسول أن يدفع ثمن راحلته وأبى أن يتطوع أبو بكر به لأن البذل فى الهجرة ضرب من العبادة ينبغى الحرص عليه ، وتستبعد النيابة فيه ·

واتفق الرسول (ص) مع أبى بكر على تفصيل الخروج ، وتخيروا الغار الذى يأوون اليه ، وتخيروه جنوبا فى اتجاه اليمن لتضليل الطاردين ، وحددوا الأشخاص الذين سيتعملون بهم أثناء الملجأ اليه ، ومهمة كل شخص(٢) ·

(٢) فقه السيرة ـ الشيخ محمد الغزالى .

ثم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم الى بيته فوجد قريشا وحلفاءها قد بدأوا يضربون الحصار حوله ، وبعثت بالفتيان الذين وكل اليهم اغتيال محمد صـــلى الله عليه وسلم وتفريق دمه بين القبائل ·

وأمر الرسول (ص) على بن أبى طالب فى هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى برده الذى ينام فيه وأن ينام به على سريره ، وفى هجعة من الليل ، وغفلة من المتآمرين انسل الرسول (ص) من بيته الى دار أبى بكر ، ثم خرج الرجلان من خوخة فى ظهرها (أى فتحة فى ظهرها) الى غار ثور » · الى الغار الذى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته فى حراسة الصمت والوحشة والانقطاع ·

وهنا نرى أنه من المفيد اثبات روايتين أخريين وردت أحداهما فى « السيرة الحلبية » جاء فيها : ان الرسول (ص) أمر عليا أن يؤدى الأمانات والودائع لأصحابها وأن ينتظر تعليمات أخـــرى سيرسلها اليه ، وكلفه أن يبلغ أبا بكر اذا جاء أن يخرج خلف رسول الله نحو بئر أم ميمون · وقد فعل ذلك على حينما حضر أبو بكر الذى اسرع باللحاق برسول الله ، ومضيا سويا يتسايران حتى أتيا جبل ثور ، وأضاف الحلبى نقلا عن سبط بن الجوزى أن أبا بكر لما لحقه (ص) أثناء الطريق ظنه رسول الله من الكفار فأسرع فى المشى فانقطع رباط نعله وجرح ابهامه فســـال الدم منه ، فرفع أبو بكر صوته ليعرفه(٣) ·

كما أورد القسطلانى فى المواهب أن أبابكر قال : نظرت الى قدمى رسول الله (ص) فى الغار وقد تقطرتا دما فأستبكيت وعلمت أنه (ص) لم يكن تعود الحفا والجفوة(٤) ·

( ) السيرة الحلبية ـ لعلى بن برهان الدين الحلبى ٤٢٨/١ .

(٤) المواهب اللدنية ـ لأحمد بن محمد بن أبى بكر القسطلانى ٦٣/١ .

كما ذكر المقريزى فى امتاع الاسماع أن قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم قطرت دما أثناء صعودهما الى الغار(٥) ·

أما الرواية الثانية فقد أوردها البلخى فى « البدء والتاريخ » فذكر أن الرسول (ص) أمر عليا أن ينام فى فراشه وقال له : فانه لا يخلص اليك شىء تكرهه ، وان أتاك أبو بكر فأخبره أنى قد خرجت الى ثور أطحل (غار بأسفل مكة) ومره فليلحق بى ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦) ·

ثم نعود لابن اسحاق الذى يقول : ان أبابكر كان قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما مايقول الناس فيهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من أخبار ، كما أمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه فى رعيان أهل مكة فاذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فاذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما الى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى اذا مضـــت الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما اسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما (رباطا) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فاذا ليس لها عصام فتحل نطاقها فتشـــقه فتجعله عصاما ، ثم علقتها به ولذلك سميت ذات النطاقين ·

وبعد ، فنحن اذا تأملنا الرواية كما رويت هكذا نلاحظ :

أولا : ان رواية الســـيرة الحلبية ورواية البلخى فى البدء والتاريخ أقرب الى الرجحان لأن المسير فرادا أقل لفتا للنظر من المسير مع بعضهما ، وأكثر امعانا فى التخفى وتضليل المطاردين ·

---

(٥) امتاع الأسماع ـ للقريزى ـ ٤٠/١ .

(٦) البدء والتاريخ لأبى زيد أحمد بن سهل البلخى (وهو لمطهر بن طاهر المقدسى) ١٧٠/٤ .

ثانيا : ليس من المعقول أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما كل ليلة بغنيماته الى الغار فيحلب لهما ويذبح وكأنهما فى رحلة ترفيهية ممتعة طوال ثلاثة أيام أو فى سفر عادى ، أيام كان المشركون الذين جنوا بغيظهم يبذلون جهودا جبارة للعثور عليهما • وان مكة فى تلك الأيام بالذات كان لا يخفى فيها سر ، فعيون قريش وآذانها على كل طريق ووراء كل بصمة قدم فوق رمالها ، ومع كل همسة يتبادلها اثنان ، كما كانت تتابع بلاشك كل من له صلة بهما متابعة دقيقة ويحصون عليهم الأنفاس • بالاضافة الى صعوبة صعود الغنيمات الى هذا الغار لارتفاعه ، وعورة الطريق اليه يعلم ذلك كل من رأى هذا الغار أو صعد اليه ، كما أن الذبح يستتبع الطهى ، والطهى لابد له من نيران والنيران تفضح من يوقدها : ليلا بضوئها ونهارا بدخانها • كما أن المهاجرين لم يكونا فى حاجة الى لحم على الأقل لمدة يومين أو ثلاثة ، فقد جاء فى السيرة الشامية رواية عن عائشة أن أسرة أبى بكر قد صنعت لهما سفرة فى جراب كانت تحتوى ضمن ما احتوت شاة مطبوخة(٧) •

وأورد السمهودى فى وفاء الوفا قول الحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لبثت مع صاحبى يعنى أبا بكر فى الغار بضعة عشر يوما ما لنا طعام الا تمر البرير أى الأراك ،فقال الحاكم معناه : مكثنا مختفين من الكفار فى الغار وفى الطريق بضعة عشر يوما(٨) كما أورده أيضا المقريزى(٩) •

---

(٧) السيرة الشامية ـ سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ لمحمد بن يوسف الصالحى الشامى ٣٣٧/٣ •

(٨) وفاء الوفا باخبار دار المصطفى (ص) لأبى الحسن بن عبد الله السمهودى ١٧١/١ •

(٩) امتاع الأسماع ـ تقى الدين احمد بن على المقريزى ٤١/١ •

ثالثا : ولا يعقل أن أبابكر قد واعد دليله (عبد الله بن اريقط) وهو مشرك أن يأتيهما بالراحلتين الى باب الغار بعد ثلاث ليال ، فكيف يأمنه على هذا السر الرهيب وهو على دين قريش ، وهناك جائزة كبيرة لمن يجىء بهما أحياء أو أمواتا ، ومائتان أو مائة من الابل فى الصحراء ثروة تسيل اللعاب ، وتغرى بركوب المخاطر ، وتحمل المشاق ، ويذكر الدكتور حسين مؤنس أن الجمل فى تلك الأيام كان يساوى حوالى ٣٫٥ أوقية من الذهب والأوقية وزن مثقال من الذهب(١٠) •

والأقرب الى الحق والمنطق والحذر أن عامر بن فهيرة مولى أبى بكر هو الذى كان مكلفا بملازمة عبد الله بن أريقط والاتصال به والتعامل معه منذ الاتفاق معه ، ومدة الأيام الثلاثة ، وأنه هو الذى صاحبه الى مكان ما يبعد عن الغار اتفق عليه معه أبو بكر ، وأن ابن أريقط لم يكن يعلم مكان اختباء المهاجرين ، كما لم يكن يعلم شخصيتهما على الأقل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا سر سفرهما حتى وقت السفر ، وان كان علم بعد ذلك فبعد أن ابتعد الركب عن مكة بمسافة طويلة يستحيل بعدها على ابن أريقط أن يفشى سرهما ، هذا وقد صاحب عامر بن فهيرة المرتحلين فقد أردفه أبو بكر خلفه •

رابعا : لا نشك لحظة فى أن أسماء لم تذهب الى الغار ، وان رواية ابن اسحاق نفسه تؤيد ذلك فهو يقول : حدثت عن اسماء بنت أبى بكر أنها قالت : لما خرج رسول الله (ص) وأبو بكر رضى الله عنه أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ابن هشام فوقفوا على باب

---

(١٠) دراسات فى السيرة النبوية ـ د. حسين مؤنس •

أبى بكر ، فخرجت اليهم فقالوا : أين أبوك يابنت أبى بكر ، قالت : قلت لا أدرى والله أين أبى · قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى · ثم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

ومعنى ذلك أن أسماء لم تكن تذهب الى الغار . وأنها انما شقت نطاقها فى البيت ، يؤكد ذلك ما ورد فى السيرة الشامية (٣ / ٣٣٧) والسيرة الحلبية (١ / ٤٢٥) أن عائشة قالت : فجهزناهما أخف الجهاز ووضعنا (بصيغة الجمع) لهما سفرة فى جراب ، فشقت اسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها ـ وفى لفظ قطعت نطاقها قطعتين فأوكت (أى ربطت) بقطعة منه الجراب ، وشدت ثم القربة بالباقى فسميت ذات النطاقين . كما أن هذا يوافق ما ذكره البخارى ومسلم (البخارى ٥/٧٣) ·

قصة بحيرا الكاهن

اهتم كتاب السيرة بقصة ذلك الكاهن الذى كان يسمى بحيرا ، وكان يقيم فى صومعة فى « بصرى » من أرض الشام ، ويزعمون أنه كان من علماء النصرانية أو اليهودية ، وكانت قوافل العرب تمر بهذه الصومعة ولا تحفل بها ·

ويروون أن أبا طالب خرج فى احدى القوافل تاجرا الى الشام، وصحبه ابن أخيه محمد ، وكان مايزال صغيرا تقول عنه الروايات أنه كان ما بين التاسعة والثانية عشرة · ويزعم الرواة أن الراهب بحيرا دعا القافلة تلك ـ ولم تكن تلك عادته ـ الى وليمة وأصر عندما لبى أفراد القافلة الدعوة وتخلف محمد لحداثة سنه ـ أصر

على أن يحضروه ليشارك فى المأدبة ، وأنه اختبر محمدا وكشف عن علامات النبوة فيه ، وأنه نصح عمه بالعودة به الى مكة خوفا من اليهود أو الروم الذين اذا عرفوه فسوف يقتلونه ، وأن عمه أطاع النصيحة ·

ويزعم الرواد الذين نفخوا فى هذه القصة وبالغوا فيها أن بعض الناس قد سمعوا هاتفا يهتف : ألا أن خير أهل الأرض ثلاثة : بحيرا ورباب ابن البراء الشنى ، والثالث : المنتظر · أما المنادى فهم يقصدون أنه من الملائكة . وأما رباب بن البراء الشنى فكان من الطيبين وكان قبره وقبر ولده من بعده يرى عندها مطر خفيف . وأما المنتظر فهو محمد · اذا فبحيرا هو خير اهل الأرض . أى أنه مؤهل ليلعب دورا هاما فى حياة محمد ورسالته ·

هذا واننا نرى فى كتب السيرة قصصا كثيرة لرهبان وأحبار رأوا محمدا وعرفوا أنه النبى المنتظر ، ولكن المستشرقين التقطوا قصة الراهب بحيرا دون غيرها وحاولوا أن يؤكدوا أن هذا الراهب هو الذى لقن محمدا الدين والعقيدة والرسالة بعد أن رأى علامات النبوة فيه · أليس خير أهل الأرض !!

والغريب هنا أن المستشرقين الذين كتبوا فى سيرة محمد يقولون ان المسلمين هم الذين ألفوا ووضعوا قصص الرهبان الذين تنبأوا برسالة محمد ونبوته ليؤكدوا أو يعززوا دينهم ، فلماذا اذا يهتمون بقصة بحيرا بالذات ويبالغون فيها ؟! · فهم اما أن ينكروا كل تلك القصص لأنها كما يدعون موضوعة ، واما أن يصدقوها ويعترفوا بها ، أما أن ينكروا كل القصص ولا يتمسكوا الا بقصة بحيرا فأمر غير منطقى ، وغير مفهوم !!

ونرى أن من المستحسن قبل أن نناقش هذه الرواية أن نستعرض بعض الروايات التى ذكرها بعض الذين كتبوا فى السيرة ·

الرواية عند ابن اسحاق (٨٥ ـ ١٥١ هـ) فى (السيرة لابن هشام) ·

أخذ ابو طالب محمدا وكان صغيرا فى سفرة الى الشام ضمن قافلة تجارية ، ونزل الركب بصرى ، وكانت بها صومعة يعيش فيها راهب يقال له بحيرا ، وكان اليه علم أهل النصرانية · ولما راهم بحيرا فى هذا العام اعد لهم طعاما ودعاهم ، ويزعمون أنه لم يفعل ذلك الا لأنه رأى رسول الله وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، ولما نزلوا فى ظل شجرة قريبة نظر بحيرا الى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل بها ·

واستجاب القوم للوليمة وتخلف رسول الله (ص) ولكن بحيرا أصر ان يحضروه ، فاحضروه · فجعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا ، ثم اخذ يسأله عدة اسئلة ، ثم نظر الى ظهره فراى خاتم النبوة ، ثم سأل ابا طالب عدة أسئلة أخرى ، ثم نصحه بأن يرجع بابن أخيه الى بلده . وحذره من اليهود الذين اذا عرفوه اذوه . وقال له انه كائن لهذا الصبى شان عظيم · وان أبا طالب استجاب الى هذا التحذير وعاد به الى مكة · كما أن بعض أهل الكتاب من الرومان ـ زريرا وتماما ودريسا ـ كانوا يتتبعون محمدا يريدون به سوءا وأن بحيرا ردهم عنه ومنع عنه اذاهم ·

الرواية عند ابن سعد : (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ) فى (الطبقات الكبرى طبعة بيروت) ·

توجه أبو طالب نحو الشام ومعه محمد (ص) فنزل منزله ، فأتاه راهب فقال : ان فيكم رجلا صالحا ، فقال : ان فينا من يقرى الضيف ، ويفك الاسير ، ويفعل المعروف . أو نحوا من هذا ، ثم قال : ان فيكم رجلا صالحا ، ثم قال : أين أبو هذا الغلام ؟ قال : فقال هاءنذا وليه ، أو قيل هذا وليه . قال : احتفظ بهذا الغلام

ولا تذهب به الى الشام ، ان اليهود حسد ، وانى أخشاهم عليه ، قال ما أنت تقول ذلك ولكن الله يقوله ، فرده ، قال : اللهم انى استودعك محمدا ثم انه مات ٠

قال : أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنى محمد بن صالح وعبد الله ابن جعفر وابراهيم ابن اسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين قالوا : لما بلغ رسول الله (ص) اثنتى عشـــرة سنة ، خرج به أبو طالب الى الشام فى العير التى خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بحيرا ، فقال لأبى طالب فى النبى (ص) ما قال ، وأمره أن يحتفظ به ، فرده أبو طالب معه الى مكة ٠

ورواية أخرى : لما خرج رسول الله فى تجارة خديجة وهو فى الخامسة والعشرين وبصحبته ميسرة ـ قدما بصرى من الشام ، فنزلا فى ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبى ٠ ثم قال لميسرة : أفى عينيه حمرة ؟ قال نعم لا تفارقه ، قال : هو نبى وهو اخر الأنبياء ، ثم باع سلعته فوقع بينه وبين رجل تلاح فقال له : احلف باللات والعزى فقال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ما حلفت بهما قط وانى لآمر فاعرض عنهما فقال الرجل : القول قولك ، ثم قال لميسرة : هذا والله نبى تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم ٠

الرواية عند الطبرى : (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ) طبعة دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل ٠

خرج أبو طالب برسول الله وهو غلام الى الشام ، ولما نزل الركب بصـــرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرا فى صومعة له ، وكان ذا علم من أهل النصرانية ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك أنه رأى رسول الله (ص) وهو فى صومعته عليه غمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا حتى نزلوا فى ظل شجرة قريبا منه فنظر الى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله (ص) حتى اســـتظل

تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ، ثم أرســـل اليهم فدعاهم جميعا ، فلما رأى بحيرا رسول الله (ص) جعل يلحظه لحظا شديدا ، وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده صفته ٠ فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا سأل رسول الله (ص) عن أشياء فى حاله ، فى يقظته وفى نومه ، فجعل رسول الله (ص) يخبره فيجدها بحيرا موافقة لما عنده من صفته ، ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، ثم قال بحيرا لعمه أبى طالب : ماهذا الغلام منك ؟ قال : ابنى ، فقال له بحيرا : ماهو بابنك ، وماينبغى لهذا الغلام أن يكون ابوه حيا ٠ قال : فانه ابن أخى ٠ قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ٠ قال : صدقت ، ارجل به الى بلدك ، واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فانه كائن له شأن عظيم ، فأسرع به الى بلده ، فخرج به عمه سريعا حتى أقدمه مكة ٠

وقال هشام بن محمد : خرج أبو طالب برسول الله صـــلى الله عليه وسلم الى بصرى من أرض الشام وهو ابن تسع سنين ٠

حدثنى العباس بن محمد : قال حدثنا أبو نوح قال حدثنا يونس ابن ابى اسحاق عن أبى بكر ابن أبى موسى ، عن أبى موسى قال : خرج ابو طالب الى الشام وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج اليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج اليهم ولا يلتفت ٠ قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله (ص) فقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ٠ فقال له أشـــياخ قريش : ماعلمك ؟ قال : انكم حين أشرفتم من العقبة لم تبق شجرة ولا حجر الا خر ساجدا ، ولا يسجدون الا لنبى ، وانى أعرفه بخاتم النبوة ، أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ٠

ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به كان هو فى رعية الابل قال : أرسلوا اليه ، فأقبل وعليه غمامة ، فقال انظروا اليه ،

عليه غمامة تظله ! فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه الى فيء الشجرة ، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه · فقال : انظروا الى فيء الشجرة مال عليه ، قال : فبينما هو قائم عليهم ، وهو يناشدهم الا يذهبوا به الى الروم ، فان الروم ان رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، فالتفت فاذا بسبعة نفر قد أقبلوا من الروم ، فاستقبلهم ، فقال ماجاء بكم ؟ قالوا جئنا ان هذا النبى خارج هذا الشهر ، فلم يبق طريق الا بعث اليها ناس ، وانا أخبرنا خبره فبعثنا الى طريقك هذا · قال لهم : هل خلفتم خلفكم أحدا آخر منكم ؟ قالوا : لا انما أخبرنا خبره فبعثنا الى طريقك هذا · قال أفرأيتم امرا أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا · فتابعوه وأقاموا معه · قال فأتاهم ، فقال : أنشدكم الله ، أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده ، وبعث معه أبو بكر رضى الله عنه بلالا ، وزوده الراهب من الكعك والزيت ·

الرواية عند اليعقوبى : (المتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ)

ذكر السفر الى الشام بصحبة أبى طالب · ولم يذكر شيئا عن بحيرا ·

الرواية عند المسعودى : (المتوفى ٣٤٦ هـ ـ طبعة دار المعرفة بيروت)

فى ١/٧٥ ، بحيرا الراهب ، وكان مؤمنا على دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، واسم بحيرا فى النصارى سرجيس وكان من عبد القيس ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب الى الشام فى تجارة وهوابن اثنتى عشرة سنة ومعهما أبو بكر وبلال ، مروا ببحيرا وهو فى صومعته ، فعرف رسول الله (ص) بصفته ودلائله ، وما كان يجده فى كتابه ، ونظر الى الغمام تظله حيثما جلس ، فأنزلهم بحيرا وأكرمهم ، واصطنع لهم طعاما ، ونزل من صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كتفى رسول الله (ص) ووضع يده على موضعه ، وآمن بالنبى (ص) وأعلم أبابكر

وبلالا بقصته ، وما يكون من أمره ، وسأل أبا طالب أن يرجع به من وجهه ذلك ، وحذرهم عليه من أهل الكتاب ، وأخبر عمه أبا طالب بذلك ، فرجع به ، فلما رجع من سفره ذلك ، كان بدء قصته مع خديجة وما أظهره الله من دلائل نبوته ، وما أخبرت به مما كان منه فى طريقه ·

وفى ٢/٢٨١ : ذكر المسعودى أن محمدا خرج مع عمه الى الشام وله ثلاث عشرة سنة ، وفى خروجه نظر بحيرا اليه ، وأوصاهم بمراعاته من اليهود فانهم أعداؤه لعلمهم بما يكون من نبوته ·

الرواية عند ابى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى : (المتوفى ٤٦٨ هـ فى أسباب النزول)

فى ص ٢٥٤ : صحب أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله (ص) ابن عشرين سنة وهم يريدون الشام فى التجارة ، فنزلوا منزلا فيه سدرة ، فقعد رسول الله (ص) فى ظلها . ومضى أبو بكر الى راهب يسأله عن الدين ، فقال له : من الرجل الذى فى ظل السدرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، قال : هذا والله نبى ، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم الا محمد نبى الله فوقـــع فى قلب أبى بكر اليقين والتصديق ، وكان لا يفارق رسول الله (ص) فى أسفاره وحضوره · فلما نبىء رسول الله (ص) وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدق رسول الله (ص) ، فلما بلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ·

الرواية عند أحمد بن محمد بن أبى بكر الخطيب القسطلانى : فى المواهب اللدنية ·

فى ١/٣١ : ولما بلغ رسول الله (ص) اثنتى عشرة سنة خرج مع عمه أبى طالب الى الشام حتى بلغ بصرى فرآه بحيرا الراهب واسمه جرجيس فعرفه بصفته · فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد

العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقيل له وما علمك بذلك ؟ قال انكم حين شرفتم به من العقبة لم يبق شجر ولا حجر الا خر ساجدا ولا يسجدان الا لنبى ، وانى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفيه مثل التفاحة ، ولما نجده فى كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده خوفا عليه من اليهود · والحديث رواه ابن أبى شيبه وفيه انه (ص) اقبل وعليه غمامة تظله · وخرج الترمذى ، وحسنه . والحاكم وصححه ، ان فى هذه السفرة اقبل سبعة من الروم يقصدون قتله فاستقبلهم بحيرا واقنعهم بتركه · ورده أبو طالب وبعث معه أبو بكر بلالا · وذكر القسطلانى ان الذهبى ضعف الحديث لقوله فى آخره « وبعث معه أبو بكر بلالا » فان أبا بكر اذ ذاك لم يكن متأهلا ولا اشترى بلال ·

الرواية عند الحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهانى : (٣٣٠ ـ ٤٣٠ هـ) فى دلايل النبوة ·

ذكر عدة روايات :

فى ١/٥٢ : ذكر القصة كما أوردها ابن اسحا ق، وأضاف أن رجالا من اليهود أرادوا أن يغتالوه بعد أن عرفوا صفته وهم : زريد ، وتمام ، ودبيس ·

وفى ١/٢ : ذكر القصة كما أوردها الطبرى والتى جاء فيها أن سبعة نفر من الروم قد اقبلوا يريدون ايذاء الرســـول فمنعهم بحيرا عن ذلك ·

وجاءت القصةفى السيرة الحلبية ، وفى الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وفى البداية والنهاية لابن كثير ، وفى سبل الهدى والرشاد ، وفى عيون الأثر ، وفى التاريخ الكبير لابن عساكر : بما لا يخرج عما اثبتناه من روايات ·

ونضيف فيما يلى أيضا بعض الروايات التى ذكرها بعض المستشرقين فى هذا الموضوع ·

الرواية فى « الرسول : حياة محمد » تأليف ر · ف · بودلى :
ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار ·

فى ص ٣٤ : صحب محمد أبا طالب فى رحلة تجارية الى الشام، وهناك الى جوار سوق بصرى دير للرهبان النسطوريين المسيحيين، وكانوا يعرفون أبا طالب فدعوه الى طعام ، وقد لفت محمد نظر بحيرا الراهب بأسئلته وتفكيره وتطلعه الى المعرفة ، وقد أثرت فيه أفكاره السديدة ، فراح الراهب يحادث العربى الصغير وكأنما كان يحادث رفيقا من رفقائه ، فأخبره بعقيدة عيسى ، وســـفه عبادة الأصنام ، وأرهف محمد السمع الى ماينطق به الرجل ، كان غريبا يخالف ما نشأ عليه وأعتقد فيه (ويقول المترجمان أن المؤلف يمهد بذلك لأن يقول فى الفصول الأخيرة من الكتاب أن محمدا قد تعلم من بحيرا ما جاء فى القرآن من نصـــوص تتفق ونصوص الكتاب المقدس ، على الرغم من أن محمدا لم ير الكتاب المقدس أبدا ، وان هذا التعليل واه ، فقد كان محمد فى العاشرة ، ومن غير المعقول ان مقابلة واحدة بين بحيرا ومحمد (ص) فى سن العاشرة تترك كل هذا الأثر · ان من حظ بحيرا أن قابل محمدا ، فلولا هذه المقابلة لاندثر كما اندثر ملايين الرهبان قبله وبعده) ·

وان الشخص الآخر الذى حدثه حديث المسيحية كانت الجارية بركة ، وكانت مسيحيتها نقية فلم يتمكن آنئذ من أن يفهم ما تقول ، وان ما يســـمعه الآن لجلى كل الجلاء ، فالوثنية وعبادة الطبيعة تنافيان المنطق · هذا هو الحق ، وليس من المعقول أن لدى محمد أية فكرة عن الديانة أو كيفية تطبيقها على نفسه ، وماكان شبابه ليشك فى عبادة الأصنام فى الكعبة ، انه اختزن فى عقله الواعى ما قاله الراهب النسطورى ، فاذا جد الجد ، وجد عنده قدرا من المسيحية استغله خير استغلال ·

الرواية فى « حضارة العرب » تأليف د · جوستاف لوبون :
ترجمة عادل زعيتر ط ٤ ـ الحلبى ·

فى ص ١٠٢ : يقول ان محمدا سافر مع عمه الى سورية مرة وتعرف فى بصرى براهب نسطورى فى دير نصرانى ، وتلقى منه علم

التوراه · ولما فوضت خديجة أمور تجارتها اليه وتهيأ له السفر الى سـورية اجتمع مرة ثانية بالراهب الذى أطلعه على علم التوراه سـابقا ·

الرواية فى « تاريخ العرب العام » : تأليف ل · ا · سيديو : ترجمة عادل زعيتر ·

فى ص ٦٦ : كان أول سفره الى الشام مع عمه أبى طالب فى ٥٨٣ م فبلغ بصرى فاجتمع فيها ببحيرا الذى كان اسمه لدى النصارى جرجيس أو سرجيس فنال حظوة عنده ·

الرواية فى « حياة محمد » : تأليف أميل درمنغم : ترجمة عادل زعيتر ·

فى ص ٢٤ : لما وصلت القافلة بصرى ، نزلت بها قريبة من صومعة نسطورية وفيها اجتمع محمد بالراهب العالم بحيرا ، وفى كتب السيرة أن هذا الراهب رأى محمدا هو النبى العظيم المنتظر على ما علمه فى كتبه · ويتساءل المؤلف فيقول : وهل أخذ الشاب القرشى محمد يقابل بين الروم والعرب وبين التوحيد والوثنية ؟! وهل بدأ يفكر فى المسائل الدينية التى ستشغل ذهنه وتستولى على حياته ؟ وهل صار يشك فى معتقدات بيئته الغليظة ؟!

الرواية فى « حياة محمد » تأليف واشنجتون أرفنج :

ترجمة د · على حسنى الخربوطلى

فى ص ٤٧ : يروى الكتاب المسلمون ـ كعادتهم ـ كثيرا من الروايات العجيبة عن رحلة الشاب التى تدل على أن العناية الالهية تحيط به دائما ، ففى خلال سفره فى هذه الصحراء المحرقة كان ملاك غير مرئى يظلله بأجنحته ، وبعد فترة كانت سحابة تحلق دائما فوق رأسه تحميه من حرارة الشمس فى الظهيرة ، حتى اذا جلس فى ظل

شجرة يحتمى بها من الشمس نبتت أغصان وأوراق جديدة تزيد من حماية الشجرة له ·

وصلت القافلة الى بصرى على حدود سوريا قرب الأردن ، وكان يسكنها حينئذ النساطرة المسيحيون · وتوقفت القافلة قرب دير من أديرة الرهبان النساطرة ، واستقبل الرهبان أبا طالب وابن أخيه بترحيب عظيم · تحدث أحـد الرهبان ، ويسـميه البعض سرجيوس ويسميه البعض الآخر بحيرا مع محمد ، وأعجب كثيرا بعقليته ورغبته فى الاستزادة من العلم وبخاصة فى المسائل الدينية ، وتبادل الراهب مع محمد الحديث فى عدة مواضيع ، ولاشك أن الراهب قد وضع همه فى القضاء على تعاليم الكفر التى تلقنها الشاب، وكان النساطرة المسيحيون ينهون عن الصور والتماثيل ، بل ان الصليب وهو شعار المسيحية كان يدخل ضمن ما ينهى النساطرة عنه ·

ينسـب الكثيرون معلومات محمد عن الدين المسـيحى الى محادثاته مع ذلك الراهب ، وقد لعبت هذه المعلومات دورا كبيرا فى حياة محمد فيما بعد · وينسب الكتاب المسلمون اهتمام الراهب بهذا الشاب الغريب الى أنه لاحظ بين كتفيه خاتم النبوة ، ولذا طلب الى عمه أبى طالب أن يحافظ على ابن أخيه عند عودته الى مكة حتى لا يقع فى أيدى اليهود فيروا خاتم النبوة فيوقعون به الأذى ·

يبدو أن ذلك الراهب الحريص على التبشير بدينه قد توسم الخير فى هذا الشاب الذكى ابن أخى سادن الكعبة ، ورأى أنه خير من يحمل بذور المسيحية الى مكة ، ومن الطبيعى أن يحرص هذا الراهب على أن يمنع ذلك الشـاب الذى قد ينجح فى تحويله الى المسيحية من اعتناق اليهودية ·

عاد محمد الى مكة وقد تأثر خياله بالقصص والروايات التى سمعها فى الصحراء ، وأحاديث ذلك الراهب النسـطورى · وكان

محمد ينظر الى بلاد الشام نظرة احترام وتقدير ، فهى الأرض التى احتمى ابراهيم بها ، وفيها تأكد أن الله هو الواحد الحق ، وكان محمد يقول دائما عن بلاد الشام انها الأرض المباركة ، وأن الله قد بارك أهل الشام ، ولذا تفرد الملائكة اجنحتها عليهم ٠

نكتفى بهذه النماذج لتلك الرواية العجيبة ، ونوضح النقاط الآتية :

١ ـ التناقض فى الروايات واضح ، فبحيرا من يهود تيماء ، كما جاء فى بعض سير الزهرى ، وعند ابن اسحاق هو نصرانى ، والمسعودى فى مروج الذهب كان نصرانيا من عبد القيس ، والرحلة كانت مع أبى طالب ، والرحلة مع ابى بكر ، والرحلة وهو فى سن التاسعة ، والرحلة وهو فى سن الثانية عشر أو الثامنة عشر ، وأبو بكر هو الذى يتوجه الى الراهب فى رواية ، وبحيرا هو الذى ينزل فى رواية ، والراهب مجهول الاسم فى رواية ، والراهب سرجس أو جرجيس او سرجيس فى رواية ! والراهب يحذر أبا طالب من الروم فى رواية ، والراهب يحذر أبا طالب من اليهود فى رواية ! وعدد الروم ثلاثة فى رواية ، وعددهم سبعة فى رواية ، وتسعة فى رواية أخرى(١) ، وغمامة تظله فى رواية ، وملاك يظله فى رواية ، ويستظل بشجرة فى رواية ٠

٢ ـ واضح أن القصة مخترعة وافك صريح ، وقد استغلها أعداء الاسلام فزعموا أنه صلى الله عليه وسلم اقتبس دينه مما تعلمه من رهبان النصارى وأحبار ال يهود ، وأنهم حتى يعلو قدر هذا الراهب الذى زعموا أنه علمه ، أحاطوا هذا الراهب بأسطورة غريبة مضحكة فجعلوه خير أهل الأرض !! ولو أنها ـ القصة ـ حدثت لتواتر خبرها وانتشر فى مكة وما حولها من القرى : فالقصة تقول ان مقابلة بحيرا للنبى كانت وهو ضمن قافلة تجارية أى لم

---

(١) انظر بهجة المحافل وبغية الأماثل ـ عماد الدين بن يحيى بن أبى بكر العامرى ص ٤٥ ٠

يكن بمفرده ، وان الحديث كان أمام شهود من أهل مكة ، وأن الحديث كان هاما وخطيرا أو غريبا لا يمر عليه السامع مر الكرام ، فقد أعلن بحيرا ـ كما تزعم الرواية ـ أنه سيكون سيد العالمين وأن الله سيبعثه رحمة للعالمين ، وأنه لفت نظر أفراد القافلة الى الغمامة التى كانت تظله والشجرة التى تهصرت ومال فيؤها عليه ٠

٣ ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بنص القرآن لم يكن هو نفسه يعرف عن أمر نبوته شيئا قبل أن ينزل الوحى ، والآيات التى جعلت آيات له ـ كما ورد فى القرآن والتوراة والانجيل ـ لا تتعلق بصفات جسمية مثل خاتم النبوة واحمرار العينين وغير ذلك ، وانما تتعلق بحقيقة الرسالة وأهدافها كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (الأعراف ١٥٧) ٠

٤ ـ الشجرة التى استظل بها الرسول لم تكن شجرة عادية يستظل بها أى عابر سبيل ، انما هى شجرة مخصوصة لا يستظل بها الا الأنبياء ، وان بحيرا هذا وأجداده كانوا يراقبونها منذ أن استظل بها عيسى عليه السلام وحتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليستظل بها ، والتاريخ يقول ان الفترة بين الاثنين كانت أكثر من ستماية سنة (كما جاء فى البخارى عن سلمان) فأى شجرة هذه وأى كاهن هذا ؟!! والشجرة ما جدواها لمن كانت تظله غمامة أو جناحا ملك أينما سار !

٥ ـ هذا واذا كان المستشرقون قد تناولوا هذه السفرة الى الشام كما تناولوا سواها وغيرها من الأحداث التى ارتبطت بتاريخ الرسول (ص) وذهبوا فى تأويلها المذاهب ، فأنكرها بعضهم

وأشار الآخرون الى أهميتها وخطرها ، وكيف أن محمدا قد وفق فيها الى استماع أحاديث بعض الرهبان ، وخرج منها بعلم وفير وخير كثير يتصل بالحياة الدينية فى عهده وعبادة الأصنام فى بلده ، واذا كانوا يريدون أن يلقوا فى روعنا أن هذا الكاهن أو الحبر كان له الفضل فى تلقين محمد أساس الدين الاسلامى والرسالة المحمدية فان ذلك منتهى الاستهانة بالعقول فكيف يستطيع صبى مهما بلغ ذكاؤه ، واستطارت عبقريته بمتوفر على تفهم هذه الأسرار المتصلة بالحياة والدين وهو مايزال فى التاسعة من عمره أو الثانية عشر وفى مدة قصيرة لا تتجاوز تناول وجبة طعام أو حتى يوم كامل استراحت فيه القافلة !! · ان هذا الاتصال مع بحيرا أو مع غيره أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، وانه مختل الرواية ، مضطرب الأسباب ، واذا كان قد توفر لمحمد فى سفرته تلك أو غيرها من الأسفار بعض المعرفة بعقائد النصرانية واليهودية فى زمنه فان هذه المعرفة لا تعدو الصور الخارجية ، براها المرء فيرى لونا جديدا ليس يفهمه ويعهده ، ولكنه لا يوفق الى تفهم ما فيها من أسرار هى دون شك عسيرة كل العسر على من كان مثله وفى سنه ، وقد عزى « دوزى » فى كتابه عن « تاريخ الأندلس » الى هذه الأسرار فشل المسيحية فى الجزيرة العربية ، لأنها بما تحويه من أعاجيب وتعقيدات ومعجزات ، وبما فيها من عقيدة التثليث لم تكن تنعم بما يساعدها على الانتشار فى الجزيرة ، ولا بما يمكنها من التأثير فى نفس العربى على الوجه الأكمل والأوسع ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية ·

كما أنكر « توماس كارليل » وغيره من مشاهير الكتاب هذا الزعم وقالوا أنه تغرير ، وأنه بعيد عن الحقيقة ، لأن محمدا فى رأيهم لا يستطيع أن يتفهم هذه الأسرار فى مثل هذه السن ، كما أكد كارلايل آن محمدا لم يتلق دروسا على استاذ أبدا(٢) ولم يعرف من العالم

---

(٢) الأبطال تأليف توماس كارلايل ترجمة محمد السباعى ص ٦٩ طبعة الهلال ·

ولا من علومه الا ما تيسر له أو أبصره بنفسه ، أو وصل الى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ·

كما ذكر الكونت هنرى دى كاسترى فى كتابه « الاسلام خواطر وسوانح » أنه ثبت أن محمدا (ص) لم يقرأ كتابا مقدسا ، ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه » وقال « ان أصل الاعتقاد فى الاسلام باله فرد ورب صمد منزه عن النقائص ، وهو اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام ، ويمتازون به عن غيرهم ، ويستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبى صلى الله عليه وسلم من مطالعته التوراة والانجيل : اذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته فى نبوته »(٣) ·

ويقول فرانز روزنثال « ان الدين الاسلامى الذى بشر به الرسول كان متميزا بالوضوح ، والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جدا ومن غير تعسف ، والواقع أن مفاهيم الاسلام أوضح وأقل جمودا من ناحية العقيدة من مفاهيم اليهود والنصارى الدينية · واذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية فان هذا لا يبرر الافتراض بأن الرسول قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة فى ترجماتها العربية » (٤) ·

ونضيف قول المرحوم د · محمد عبد الله دراز عن تلك القصة فيقول « وسوف لا نعول على قصة بحيرا الراهب ، فالصواب يمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرا لتعليم محمد ، لأن الحادثة اما انها أسطورية أو يتعين علينا أخذ كل الوقائع التى

---

(٣) الاسلام خواطر وسوانح ـ تأليف الكونت هنرى دى كاسترى ترجمة احمد فتحى زغلول ص ١٨ ·

(٤) علم التاريخ عند المسلمين ـ فرانز روزنثال ـ ترجمة د. صالح احمد العلى ص ٣٩ ـ ٤١ ·

نذكرها قال حسبان ، وحينئذ نجد أن القصة تذكر أن هذه المقابلة كانت فى حضـــور جميع أفراد القـــافلة ، وأن محمدا كان دوره « مسئولا » لا مستمعا ، وبانتهاء الاستجواب خلص الراهب الى نبوءة مضمونها توقع بعثة هذا الشاب رسولا فى المستقبل ، ان الفكرة اذن تفند نفسها(٥) ٠

ويقرر هوارت Huart فيقول : مهما كان اغراء الفكرة التى تقول بأن تفكير المصلح الشاب محمد قد تأثر بقوة عندما شاهد الديانة المسيحية بسوريا ، فانه يتحتم استبعادها نظرا لضـــعف الأسس التاريخية للوثائق التى كانت أمامنا وعدم وجود روايات صحيحة غيرها(٦) ٠

ويقرر المستشرق د ٠ لاس أوليرى الذى قدم بحثا مفصـــلا دقيقا فى هذه المواضيع فى كتابه « علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب » يقول : من البهتان ما شاع عن القول ان النبى سمع من هؤلاء قصص التوراة التى تحتل مكانا بارزا من القرآن(٧) ٠

ويقول جورج كيرك ان محمدا بدأ دعوته الدينية سنة ٦١٠ م ولم يكن له بطبيعة الحال معرفة مباشرة بكتب اليهود والنصارى المقدسة ، اذ لم تكن قد ترجمت بعد الى اللغة العربية وهو لا يعرف لغة سواها(٨) ٠

---

(٥) اقتبسها د. محمـد ابراهيم الفيومى فى كتابه « الفكر الدينى الجاهلى » ص ٩٣ من كتاب « مدخل الى القرآن » ص ١٣١ ٠

(٦) فى الفكر الدينى الجاهلى ـ د. محمد ابراهيم الفيومى ص ٩٣ ٠

(٧) من مطبوعات الالف كتـاب ـ ترجمـة د. وهيب كامـل مراجعـة زكى على ص ١٢٧ و ١٢٨ ٠

(٨) موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الاســلام الى الوقت الحاضر ترجمة عمر الاسكندرى ص ١٩ ٠

٦ ـ على احتمال أنه تعلم من بحيرا أو نسطورا أو استمع اليهما فياترى اى شىء تعلمه منهمـــا ؟ وعقيدة أى مذهب ؟ هل العقيدة النسطورية أو عقيدة مذهب الطبيعة الواحدة بمشيئتين أو الطبيعة الواحدة بمشيئة أو الطبيعتين بمشـــيئتين أو عقيدة أتباع أوطيخوس أو عقيدة اليعاقبة أو غير ذلك من العقائد والمذاهب التى كانت منتشرة فى ذلك الزمان ؟ ثم ماهى المدة الزمنية التى تكفى الاحاطة بالمسيحية ؟ لقد وصف «جورج سيل» مترجم القران الى اللغة اللغة الانجليزية حالة المسيحية فى ذلك الزمان باختلال الأحوال، وكثرة المناقشـــات التى لا تكاد تنقضى ، وأنه قد انتقض حبلها بمحاكاة الاريوسيين والنساطرة واليعاقبة وغيرهم من أهل البدع ـ وكان هذا هو وصف رجل متعصب على الاسلام لا يتهم بمحاباته ، و يظن به بأنه يتحامل على المسيحية ـ ومن الواضـــح المبين ان عقائد المسيحية على ذلك النحو لم تكن مما يغرى بالاعجاب أو مما يدعو الى الاقتداء(٩) ٠

٧ ـ اذا استحضرنا مرة أخرى ما كتبه بودلى عن القصة ، ثم ما كتبه بعد عدة صفحات من نفس الكتاب « الرسول : حياة محمد » نجده يقول فى ص ٧٧ « يرجع اخفاق محمد فى قبول اليهود والمسيحيين له ، أو على الأقل فى تنظيم صفوفهم معه : الى مثله العليا ! تارة ، والى عدم معرفته ديانتهم معرفة تامة تارة أخرى » ٠

أمر غريب حقا ! أيمكن أن تكون المثل العليا سببا فى نفور الناس الا أن يكونوا غير أسوياء ، وفى ضلالهم يعمهون ! والأغرب من ذلك أن الرجل قد أدعى أن محمدا تثقف وتعلم على يد كاهن ، أى أنه ارتوى من النبع النصرانى ، اذا فان الأمر الطبيعى أن يقترب المسيحيون واليهود منه لا أن يبتعدوا عنه لأن الوحدة الثقافية تحدث التقارب وليس التباعد ٠

---

(٩) حقائق الاسـلام وأباطيل خصومه ـ عباس محمود العقاد ص ٥٤ ط الهـلال ٠

ثم انظر اليه يقول فى نفس الكتاب أيضا فى صفحة ٢١٦ « وقد ظلت كيفية معرفة محمد بالتوراه والانجيل أمرا غامضا ، وهناك هذه الترجمة التى تعزى الى ورقة بن نوفل ، ولكن ليس هناك أقل شاهد على أن محمدا قد أطلع عليها ، وكان حديثه مع ورقة يتعلق بعموميات اللاهوت ، وأن السبب الأولى الذى يؤكد عدم اطلاعه عليها أن ورقة قد مات قبل أن يبدأ محمد فى تدوين ما أوحى به جبريل اليه ، وقبل أن يبدأ فى تنسيق القرآن بكثير · وأول طبعة عربية للعهد القديم نشرت بعد المسيح بتسعة قرون أى بعد موت محمد بما يقرب من ثلاثة قرون ، وأن أول طبعة رسمية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين ! ولم يكن كل ذلك فى نظره كافيا لينفى عن محمد اطلاعه على التوراة والانجيل ، بل انه يعود ليضع جرعة من السم فى الدسم فيقول « وللعرب ذاكرة مدهشة ، فمن الممكن أن محمدا كان قادرا على أن يختزن فى عقله كل ما سمعه خلال رحلاته ، وأن هذا ليبدو عملا خارقا ، ولكن هو التفسير الممكن الوحيد ، الا اذا قبلنا صراحة أن القرآن وحى من السماء » ·

وهكذا يناقض الرجل نفسه ·· وهكذا يفكرون ، ولا غرابة فى ذلك فالرجل ككل الباحثين فى الأديان من الغربيين الذين يصطنعون سمة العلم يطلقون نعوتهم على الاسلام سماعا فيما يظهر من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التى لا يبدو منها أنهم كلفوا عقولهم أى جهد لتلم المامة واحدة بهذا الدين فى جملة أو تفصيل ، بل ربما فاقهم هذا الرجل بخبثه ولؤمه ، فهو يلبس الباطل بالحق ·

نعم لا غرابة فى ذلك فالرجل أوربى يملأ الحقد على الاسلام قلبه · ولقد شرح ذلك واحد منهم هو الاستاذ النمساوى « ليوبولد فايس » الذى أسلم وتسمى باسم « محمد أسد » ودرس الاسلام والقرآن والسنة والشريعة ، وأنار الايمان قلبه ، وألف كتابه « الاسلام على مفترق الطرق » قال فيه انأوربا قد ورثت عن اليونان والرومان نظرتهم الى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون ، أما

كل من كان أجنبيا عنهم وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط فقد كانوا يطلقون عليهم لفظ « البرابرة » ومنذ ذلك الحين والاوربيون يعتقدون أن تفوقهم العنصرى على سائر البشر أمر واقع · ثم ان أحتقارهم الى حد بعيد أو قريب لكل ماليس أوربيا من اجناس الناس وشعوبهم قد أصبح احدى الميزات البارزة فى المدنية الغربية ·

على أن هذا وحده لا يكفى لاظهار ما يكنه الاوربيون نحو الاسلام خاصة وهنا وهنا فقط (يعنى فيما يتعلق بالاسلام) لا تجد موقف الاوربى موقف كره فى غير مبالاه فحسب كما هى الحال فى موقفه من سائر الاديان والثقافات بل كره عميق الجذور يقوم فى الاحتر على التعصب الشديد · وهذا الكره ليس عقليا فحسب ولكنه يصطبغ ايضا بصبغة عاطفية قوية · فقد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفه البوديه أو الهندوكية ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير الا أنها حالما تتجه الى الاسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفى بالتسرب حتى أن أبرز المستشرقين الاوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الاسلام ·

وعلى الجملة فان طريقة الاستقراء والاستناج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التى أنشاتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى ، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدا أن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها ، ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا اليه مبدئيا ، وادا تعذر عليهم الاختيار العرفى للشهود عمدوا الى اقتطاع اقسام من الحقيقة التى شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها من المتن أو تأولوا الشهادات بروح غير علمى من سوء القصد من غير أن يحسبوا قيمة ما الى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر أى من قبل المسلمين أنفسهم ·

ويستمر الاستاذ محمد أسد فيقول : وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للاسلام وللامور الاسلامية فى جميع ما كتبه مستشرقوا أوربا ، وليس ذلك قاصرا على بلد دون آخر : انك تجده فى انجلترا والمانيا ، فى روسيا وفرنسا ، فى ايطاليا وهولندا ، وبكلمة واحدة فى كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الاسلام . ويظهر أنهم ينتشون بشىء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة ـ حقيقية أو خيالية ـ ينالون بها من الاسلام عن طريق النقد . وبما أن هؤلاء المستشرقون ليسوا سلالة خاصة ولكنهم طلائع مدنيتهم وطلائع بيئتهم الاجتماعية فاننا من أجل ذلك يجب أن نصل بالضرورة الى أن نستنتج أن فى العقل الأوربى على العموم ـ لسبب ما ـ ميلا عن الاسلام بما هو دين وبما هو ثقافة . ان سببا واحدا لذلك يمكن أن يعزى الى الارث الذى قسم العالم يومذاك « أوروبيين وبرابرة » واما السبب الآخر وهو أشد صلة مباشرة بالاسلام فيمكننا متابعته اذا ولينا ابصارنا شطر الماضى وخصوصا الى تاريخ العصور الوسطى(١٠) . والحروب الصليبية ، تلك الحروب التى غذتها دعايات كاذبة ، ومفتريات ظالمة عن الاسلام والمسلمين يرددونها حتى فى أغانيهم وأناشيدهم وترانيمهم الكنسية . انها ايحاءات يومية ، ووسوسات متوالية تلح على النفس حتى تصبح يقينا لا يتزحزح وعقيدة تترسخ ، وعادة ينقلها السلف الى الخلف .

وننقل ماكتبه المستشرق جوستاف أ . فون جرونيباوم فى كتابه « حضارة الاسلام »(١١) يقول : يحدثنا يوحنا الدمشقى (٦٧٦ ـ ٧٥٦ م) الذى ألف كتابا فى « مباحثة بين مسلم ومسيحى » الذى يتناول الاسلام على أنه فرقة مسيحية مارقة (كذا) ، وكيف أنه حدث فى أيام الامبراطور هرقل أن ظهر بين العرب متنبىء اسمه

---

(١٠) الاسلام على مفترق الطرق ـ تأليف محمد اسد ترجمة د. عمر فروخ ص ٥٠ وما بعدها .

(١١) ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ـ مجموعة الألف كتاب ص ٦٥ وما بعدها .

« ماهد » وأنه أطلع على كتب العهد القديم والجديد ، ثم مالبث بعد أن اتصل براهب من أتباع أريوس أن أسس نحلته (كذا !) وقد استطاع بالتظاهر بالتقوى (كذا !) أن يكتسب قلوب قومه . ثم أخبرهم بعد ذلك أن كتابا مقدسا قد أنزل اليه من السماء يشتمل على تعاليمهم المقدسة ، وقدم اليهم الفرائض المضحكة (كذا !) التى وضعها فى ذلك الكتاب قائلا انها شريعتهم المقدسة .

وكان أول مؤرخ بيزنطى عالج أمر محمد هو ثيوفاينز المعترف (المتوفى ٨١٧ م) الذى قدر لكتابه « حياة محمد » أن يكون مرجعا هاما لمن تلاه من الكتاب ، ومن سوء الحظ أن ثيوفاينز هذا لا يبين مراجعة التى أخذ عنها واليكم ما قاله :

« فى هذه السنة (عام ٦١٢٢ من بدء الخليقة المقابل ٦٣٢ م) توفى محمد حاكم العرب ونبيهم بعد أن عين قريبه أبابكر خليفة له . وفى نفس الوقت كان الخوف مستوليا على الجميع . وعند بداية ظهوره ظن العبرانيون الضالون أنه المسيح الذى كانوا يتوقعون ظهوره . لذلك انضم اليه بعض كبارهم وتقبلوا دينه وهجروا دين موسى الذى رأى الله جهره ، والذين فعلوا ذلك كانت عدتهم عشرة ، وقد لازموه حتى لقى نهايته . ثم عدلوا عن رأيهم عندما رأوه يأكل لحم الجمل (كذا !) .. اذ أدركوا أنه ليس ماظنوه أولا ، فتحيروا ولم يعرفوا ماذا يصنعون ، وخاف التعساء من الارتداد عن دينه ، فرمونا نحن المسيحيين بتهم السلوك غير المشروع ، وواصلوا مناصرته » . ثم يقول ثيوفاينز : ولما كان محمد المذكور فقيرا ويتيما فانه قرر أن يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى قرباه ، هى خديجة ، بأن جعل من نفسه وكيلا لها لقاء أجر يتناوله . ويتولى شئون ابلها ، ويقوم بأشغالها فى مصر وفلسطين . ولم يمض طويل زمن حتى فاز برضاها ، وكانت أيما ، بفضل طرائقه الصريحة فاتخذها له زوجة ، وبذلك حصل على ابلها وسائر ممتلكاتها . وقد اختلط فى فلسطين باليهود والمسيحيين، وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة . وأصيب كذلك بمرض عصبى (كذا !) .. فلما علمت

زوجته بأمره حر فى نفسها أنها وهى العريقة الاصل قد اصبحت اليوم مرتبطة بانسان لا يقتصر أمره على أنه فقير بل هو أيضا مريض (كذا !) فراح يهدئها بقوله : انى تلم بى رؤية ملك من الملائكة ، اسمه جبريل ، ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه فانى تخور قواى واقع على الأرض · وكان يقيم بتلك النواحى راهب ، كان قد نفى لكفره واتخذته صديقا ، فأخبرته خديجة بكل شىء ، كما أبلغته باسم الملاك ، وأراد هذا الراهب أن يقنعها تماما فقال لها : لقد قال الصدق · فما ذلك الملاك الا الناموس الذى يرسل الى النبيين كافة · حتى اذا قبلت خديجة أقوال الراهب الزائف وصدقتها ، أعلنت لنساء عشيرتها الاخريات أن زوجها نبى · وهكذا انتشر الخبر من النساء الى الرجال ، فبلغ أولا أبا بكر الذى جعله فيما بعد خليفته من بعده · وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته أو قل فرقته المارقة (كذا !) أن تحصل بالقوة أو بالحرب على السيادة على منطقة يثرب وذلك أنه قضى فى البداية عشر سنوات ينشر دعوته سرا ، ثم قضى عشر سنوات أخرى ينشرها حربا ، وانتهى به الأمر الى اعلانها صراحة وحكم البلاد تسع سنوات ، وكان يعلم أنصاره أن من قتل عدوا أو قتله عدوه فهو داخل الجنة ·· وكان يصف الجنة بأنها موطن (سرور) جسدى وشرب وخمر وعناق للنساء · وأن بها أنهار من خمر ومن عسل ومن لبن ، وأن هناك نساء غير اللواتى لهم اليوم عناقهن مديد دائم وله سرور مقيم ·· الخ ·· ويجب عليهم مع ذلك أن يعين بعضهم بعضا وأن ينصروا المظلوم » ·

ومثل آخر للاسفاف رواية أو تقرير ألفه سائح المانى يدعى « لودوف دى سودهم » بعد أن قام برحلة الى الأراضى المقدسة سنة ١٣٤٢ م أوردها الكونت هنرى دى كاسترى أيضا فى كتابه « خواطر وسوانح »(١٢) ، والرواية عبارة عن نفثة من النفثات المسمومة التى تتساقط من أفواه الحاقدين وأقلامهم يقول التقرير :

---

(١٢) خواطر وسوانح ـ ترجمة احمد فتحى زغلول ص ١٥٢ وما بعدها .

« اعلموا أنه فى سنة ٦٢٠ من تاريخ الرب جاء الشيطان باذن الله ونشر بدعة المحمديين بالطريقة الآتية ، فأولا فتن الحبر سرجيوس الذى كان من طائفة القديس (بنوا) وطرد منها لاعتناقه بدعة نسطوريوس · وبعد أن فتنه انقذه الى مقام الملك فى روما لينال بعض الوظائف الدينية ، ولما لم ينل مراده ، ويئس من النجاح قفل الى بلاد العرب ، ونزل فى بنى هاجر وهم بنو اسماعيل الذين سموا أنفسهم (سرازيين) تفاخرا بسارة التى كانت بنت اسماعيل ، ولكن هذا الاسم لا يليق بهم ويجب أن يطلق عليهم عنوان (الماغومديين أى المحمديين) تبعا لاسم « ماومد » التى اغترت به تلك الطوائف الخشنة التى تسكن الصحراء · ولما صار سرجيوس المذكور فى تلك البلاد وجد رجلا جاهلا أسمق اسمه « ماغومد » (أى محمد) وأثر عليه حتى اعتقد فى نفسه أنه نبى ووضع له بعض البقول فى أذنه اليمنى وعلم حمامة فصارت تأتى كل يوم فتقف على كتفه وتلتقط الحب منها ، ثم جعل سرجيوس يدعو فى الناس بأن الله اختار بنى هاجر وكانوا فى ذاك الحين أحقر الأمم وأرذلهم ، وأراد أن يخرج من بينهم نبى الأنبياء وأن روح القدس سيناجيه أمام الناس فى صورة حمامة ، فصدقوا ، ولما صار « ماغومد » (محمد) وسطهم أطلق سرجيوس الحمامة وكانت على سغب ، فطارت الى كتفه وجعلت تلتقط الحب من أذنه فأشار اليه سرجيوس أنه هو النبى المرسل من قبل الله لأمته ، ولميكن أحد ما يعرف « ماغومد » وهو نفسه ما كان يعرف عائلته بل وجدوه لقيطا فى الصحراء فآواه بعض الأعراب وربوه حتى صار من رعاة الابل ، ولكونه كان مجهولا عند الناس ظنوا أنه نزل من السماء ·

ثم انتشر صيته جدا حتى صار الناس يفدون عليه فى كل يوم من أقاصى البلاد ، وعند ذلك اجتهد سرجيوس فى اقناع امرأة من العرب اسمها (كندوكاجيا) أى خديجة) فتزوجت « ماغومد » · واستعمل « ماغومد » الغلظة والغش حتى أخضع الأمة بتمامها لسلطته · ثم أصابه داء الصرع انتقاما من عند الله ، وكان كلما ينتابه الدور يقول ان السبب فى تألمه ناشىء من محادثته مع ملك من

الملائكة ومن ذلك الحين اخذ فى سن القوانين المنجسة وتاليف الكتاب المسمى : التريان (القران) فكتبه باملاء سرجيوس لأنه كان مجردا من كل تربية وتعليم ·

انظر مدى المسخ الذى يصيب الحقائق حين تقع كيد الأهواء ، وتلوكها أفواه الغل والحسد والجهل، وعفاء على التاريخ والعلم كله اذا كانت فيم الحقائق تتناول بهذا الشكل الفوضوى المجوج ·

ونعود الى ما كتبه بودلى فنقول انه لو درس الاسلام حقا بفكر مفتوح ، وبنفس بريئة من التعصب الأعمى لعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يعرف القراءة والكتابة بالعربية أو بغير العربية ، لو علم ذلك لوفر على نفسه مئونة البحث فى اطلاعه على الكتب والترجمات المزعومة عند ورقة أو بحيرا أو غيرهم ·

ولو تعمق قليلا فى أبحاثه لعلم « ان الانجيل حتى باللغات غير العربية لم يكن فى متناول عامة الناس من المسيحيين واليهود وبالأحرى لدى العرب ، وكانت الآراء القليلة التى كانت متداولة بين عامة الناس وحتى المسيحيين منهم والمأخوذة من التوراة والانجيل غامضة مبهمة وأكثرها يناقض بعضها بعضا حتى لا يصح أن تتخذ أساسا لهذه الدقة والاتساع والوحدة والقوة الموجودة فى مادة القرآن(١٣) ·

ثم لو أن الله قد انار قلبه لهداه الى « ان ما بين المسيحية واليهودية والاسلام من عناصر متشابهة حسمها القرآن حين قال ان ما نزل على محمد ليس بدعا عما نزل على غيره من الرسل « انا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا · ورسلا قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما ·

---

(١٣) الاسلام الصراط المستقيم ـ د. محمد عبد الله دراز واخرون ١/٢٥ ·

رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » (النساء ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥) · ويصبح كل بحث يحاول أن يبرز عناصر التشابه بين ما نزل من وحى فهو من غير أن يدرى يدور فى فلك الآيات السابقة حين أكدت وحدة وحى السماء وفى نفس الوقت تؤكد دعوى نبوة الرسول وصدق ما قاله ودفع لنوازع النفوس البشرية حين تريد أن تخلق من المتجانسات تنافرا(١٤) ·

٨ ـ يزعمون أن الكتب الاسرائيلية هى مصدر الأنباء الأولى ، وان ما جاء فى القرآن عنها انما هو منقول عن تلك الكتب · وقد أثبت القرآن انه روى عن النبوءات السابقة أخبارا لم تذكر ولم ترد الاشارة اليها فى كتب العهد القديم ولا فى أقاصيص التلمود وماشابهه من أسانيد(١٥) · عزز ذلك الكشوف الحفرية فى الجزيرة العربية وما بين النهرين · فكيف يساغ بعد ذلك الزعم بأن القرآن قد نقل عن الكتب الاسرائيلية ·

٩ ـ يقول واشنجتون ارفنج ـ كما سبق ان ذكرنا ـ ان الراهب حرص على التبشير بدينه ، وحرص على أن يمنع ذلك الشاب (محمد) من اعتناق اليهودية ·

ونتساءل اكان هذا ممكنا ؟ وهل يحرص اليهود على التبشير بدينهم واقناع أحد على الايمان به والدخول فيه ؟ ·

لقد كان اليهود من اشد الناس تمسكا بدينهم ، واكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم ، فجعلوا شريعة موسى فيهم وحدهم خالصة لهم من دون الناس ، ضمنا بهذا الخير الذى جاء به موسى من عند الله أن ينال منه أحد سواهم شيئا ينتفع به ، مع أن هذا الخير

---

(١٤) فى الفكر الدينى الجاهلى ـ د. محمد ابراهيم الفيومى ص ٨٨ ·

(١٥) علم التاريخ عند المسلمين ـ فرانز روزنثال ـ ترجمة د. صالح احمد العلى ص ٤١ ·

يزداد وضاءة وألقا كلما اتسعت الدائرة التى يشرق عليها ، وينفد بشعاعة فيها ، ولكنها كزازه النفس ، وكنود الطبع ، وما غلب على هذه الجماعة من أثرة قاتلة وشح لئيم : هى التى جعلتهم يذهبون بشريعة موسى هذا المذهب فيعزلونها تلك العزلة المطبقة حتى كادت تختنق وتذهب بددا، وحاشا لله أن تجىء شرائع السماء آخذة هذا الاتجاه المعكوس فتدير للناس ظهرها ، وتصك فى وجوههم وجهها ·· والله سبحانه وتعالى يقول « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »(١٦) ·

وهكذا يتخبط المستشرقون فى دعاواهم ومزاعمهم ليبرروا ما يفترون ·

١٠ ــ وأخيرا أرى أنه من المفيد أن نذكر الكلام الطيب الذى قاله المرحوم د · محمد عبد الله دراز فى هذا الموضوع(١٧) : انه يتساءل عن كيف يعقل أن رجلا رأى علامات النبوة فى امرىء فبشره بها قبل وقوعها أو آمن بها بعد وقوعها ، تطاوعه نفسه أن يقف من صاحب هذه النبوة موقف المرشد المعلم !!

لو كانوا معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أن يؤمنوا به ·

وهل كان علم العلماء يومئذ مبذولا لطالبيه ، مباحا لسائليه ؟ أو كان حرصهم على هذا العلم أشد من حرصهم على أبنائهم استبقاء لرياستهم أو طمعا فى منصب النبوة الذى كانوا يستشرقون له فى ذلك العصر !

---

(١٦) سورة آل عمران ــ آية ١٨٧ ــ وانظر التعريف بالاسلام فى مواجهة العصر الحديث وتحدياته ــ لعبد الكريم الخطيب ص ٨ ·

(١٧) النبأ العظيم ــ نظرات جديدة فى القرآن ص ٥٠ ·

والقرآن الذى يقول عنه الملحدون « ان القرآن هو الأثر التاريخى الوحيد الذى يمثل روح عصره أصدق تمثيل » · وهذه كلمة حق فى حدود معناها الصحيح أى أن يمثلها ولا يتمثلها ، وان شئت فقل انه يمثلها أصدق تمثيل ثم يمثل بها أنكى تمثيل ·

فاذا احتكمنا الى القرآن الذى رضيه الملحدون حكما بيننا وبينهم فانه يكفينا مؤونة الجواب عن هذا السؤال ، وهاهو ذا يقول لنا : انهم فى سبيل الضن بكتبهم وعلومهم لا يتورعون عن منكر فكانوا تارة « يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة ٧٩) وتارة « يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران ٧٨) وتارة « يحرفون الكلم عن مواضعه » (المائدة ١٣) ، وتارة يبترون الكتاب فيظهرون بعضها ويخفون بعضها « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » (الأنعام ٩١) ، وتارة يحاجون بمحفوظهم فاذا قيل لهم « فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » (آل عمران ٩٣) بهتوا فلم يجيبوا · وربما جاءوا بها فقرأوا ما قبل الشاهد وما بعده وستروا بكفهم مكان النص المجادل فيه ، كما وقع فى قصة الرجم ، فجاء القرآن يرميهم علنا باللبس والكتمان « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (آل عمران ٧١) بل جاء كاشفا لما ستروه مبينا لما كتموه حاكما فيما اختلفوا فيه « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (المائدة ١٥) « ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦) : « تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم » (النحل ٦٣) ·

ونعود مرة أخرى فنقول لمن يزعم أن محمدا كان يعلمه بشر : قل لنا ما اسم هذا المعلم ؟ ومن ذا الذى رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟

فان كلمة « البشر » تعنى ناس يمشون على الأرض . ويراهم الناس غادين ورائحين . فلا تسمع دعواهم بدون تحديد وتعيين . بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يجعلون لله شركاء لا وجود لهم الا فى الخيال والوهم . فيقال له كما قيل لهم (قل سموهم أم تنبئونه بمالا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هاد) (الرعد ٣٣)

بل نقول هل ولد هذا النبى فى المريخ . او نشأ فى مكان قصى عن العالم فلم يهبط على قومه الا بعد أن بلغ أشده واستوى . ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه الا لماما ! ألم يولد فى حجورهم ؟ ألم يكن يمشى بين أظهرهم يصبحهم ويمسيهم ! ألم يكونوا يرونه بأعينهم فى حله ورحيله ؟ (ألم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) (المؤمنون ٦٩) .

نعم ان قومه قد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه كلمة (انما يعلمه بشر) (النحل ١٠٣) ولكن هل تراهم كانوا فى هذه الكلمة جادين ؟ وكانوا يشيرون بها الى بشر حقيقى عرفوا له تلك المنزلة العلمية ؟ كلا انهم ماكان يعينهم أن يكونوا جادين محقين . وانما كان كل همهم أن يدرءوا عن أنفسهم معرة السكوت والاقحام بأى صورة تتفق لهم من صور الكلام : بالصدق أو بالكذب . بالجد أو باللعب !

وما أدراك من هو ذلك البشر الذى قالوا انه يعلمه !

أتحسب أنهم اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم ؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلا من أن يعلموا رجلا جاءهم بمالم يعرفوا هم ولا آباؤهم . أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ فى عهد البعثة المحمدية عمدوا الى رجل

من أولئك العلماء فى المدينة أو فى الشام أو فى غيرها فنسبوا ذلك التعليم اليه ؟ كلا ان السنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة أيضا . فلن يصدقها أحد لبعدها عن الواقع والممكن . اذا ماذا ؟ .

لقد وجدوا انفسهم مضطرين ان يلتمسوا شخصا يتحقق فيه شرطان : أحدهما أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملى عليه بكرة وأصيلا . وثانيهما أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال ان عنده علم ما لم يعلموا . وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها .. أتدرى أين وجدوها ؟ فى حداد رومى !!

نعم وجدوا فى مكة غلاما تعرفه الحوانيت والأسواق . ولا تعرفه تلك العلوم فى قليل ولا كثير .. غير أنه لم يكن أميا ولا وثنيا مثلهم بل كان نصرانيا يقرأ ويكتب . فكان من أجل ذلك خليقا فى زعمهم أن يكون استاذا لمحمد . وبالتالى استاذا لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين . ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغا لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها ورد متشابهها الى محكمها . وهل كان مزودا فى عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم . لعرفت أنه كان حدادا منهمكا فى مطرقته وسندانه . وأنه كان عامى الفؤاد لا يعلم من الكتاب الا أمانى . أعجمى اللسان لا تعدوا قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه . لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه اياه رغم أنف الحاسدين .

« وقد يجيز العقل أن يستدين فقير من غنى . وأن يستعين ضعيف بقوى . وصور التعاون بين الأفراد وصور الاقتباس والاستعارة والاستفادة بين شتى الحضارات والجماعات الانسانية معروفة فى التاريخ القديم والحديث . غير أن العقل يحكم باستحالة التلاقى والاستمداد يوم يكون التكافؤ معدوما بين الطرفين . فمن الحماقة أن يقال ان أرسطو أخذ افكاره من أحد الخبازين فى أفران اثينا أو أحد الخمارين فى حاناتها . ومن الحماقة ان يقال أن فورد

أخذ ثروته من متسول فى احدى كنائس أمريكا ، ومن الحماقة أن يقال ان محمدا ألف قرآنه بمعونة أحد الخواجات النازحين الى مكة يطلبون الرزق !!

ان هذا البيان الساحر بفحواه ، القاهر بمبناه ، يعجز العرب الأئمة عن الاتيان بآية مثله · فكيف بنازح أعجمى ؟!!(١٨) ·

وهكذا ضاقت بهم دائرة الجد فما وسعهم الا فضاء الهزل · وهكذا أمعنوا فى هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثل من يقول ان العلم يسقى من الجهل ، وان الانسان يتعلم كلامه من الببغاء ! وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله (لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) (النحل ١٠٣) ·

نعم انهم رأوا فى هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسيغ مرارة الزور والباطل ، ورأوا فى هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفى صدورهم ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم ، ولكنهم ما دروا أن فى طى هذه السخرية سخرية بهم ، وأنهم شهدوا على أنفسهم أنهم أجهل الأمم ، وأن كل غريب عنهم — ولو كان غلاما سوقيا — أهل لأن يقال عنه أن عنده من العلم ماليس عندهم ، فياله من نطق كان العى فى موضعه خيرا لهم وأستر عليهم ، وياله من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا أنفسهم من حيث لا يشعرون ·

أما الحق الذى كانوا يخاصمونه فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة الى قوته ، ذلك أنهم حين خرجوا يلتمسون واحدا من البشر يمكن أن ينسب اليه هذا العلم المحمدى لم يستطيعوا أن يفترضوا له مصدرا تعليميا خارج حدود قريته ، بل كان آخر جهد بذلوه من حياتهم وآخر سهم رموه من كنانتهم أن جاءوا من بين ظهرانيهم

---

(١٨) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين — محمد الغزالى ص ٨٧ ·

بهذا الغلام الذى عرفت خبره · فيالليت شعرى لو كان لهذا الغلام أن يكون مرجعا علميا كما أرادوا أن يصفوه فما الذى منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم ؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداوونه من جنس دائه ، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدى للعالم صفحته فينال فى التاريخ شرف الاستاذية ، أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية ؟! ·

ويالليت شعرى لماذا لا ينسبون تلك العلوم الغريبة عنهم الى أهلها الموسومين بها من الربانيين والأحبار فى المدينة أو من القسيسين والرهبان فى الشام ، أولئك الذين قضوا أعمارهم فى دراستها وتعليمها ؟ أليس ذلك — لو كان ممكنا أو شبيها بالممكن — كان هو أحسن تلفيقا وأجود سبكا وأدنى الى الرواج ، وأبعد عن الاحالة من نسبتها الى حداد مكة ؟ أم ضاقت بهم الأرض فلم يجدوا أحدا أمثل منه ولا أعلم بالدين والتاريخ ؟ تالله لولا أنهم وجدوا باب التعليم الخارجى أمنع سدا من سائر الأبواب ، وأدخل منها فى معنى المكابرة التى تروج : لما ضيقوا على أنفسهم دائرة الاتهام حتى تورطوا فى هذا المجال المكشوف ، وافتضحوا بهذه المقالة الشوهاء ·

هؤلاء قوم محمد (ص) ومعاصروه ، وهم كانوا أحرص الناس على خصومته ، وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته ، وأحصاهم لحركاته وسكناته ، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم فى عصره : فما بال أعداء الاسلام وحساده يأتون بعد عشرات السنين انفضت فيها سوق الحوادث ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، ينبشون فى قمامات التاريخ التى أنف قومه أن ينبشوها ، فيبتدعوا قصة هذا الراهب أو ذاك ليوهموا بأن محمدا كانت له صلة علمية مع النصارى أو اليهود ، ويتلقفها بعض علماء المسلمين ويسجلوها فى كتبهم بسذاجة تدعو الى العجب ، ودون بحث أو تمحيص أو تأمل ، فينقلون ما يسمعون مهما كان مصدره ، ولو كان من تأليف النصارى الذى كان التسامح الدينى معهم ، وخاصة ابان حكم الدولة الأموية التى أفسحت لهم الصدر أن يتناقشوا مع

المسلمين فى دمشق بكل حرية ، بل ويضعوا الكتب والرسائل فى الرد على المسلمين ومناقشتهم ، والتى ملؤوها بالمفتريات · ومن هؤلاء وعلى رأسهم رجل دين مسيحى فزع من انتشار الاسلام ومن دخول النصارى فيه أفواجا فكتب بحوثا لارشاد اخوانه فى الدين ولتعليمهم أمور دينهم ، وارد الشبهات التى تكونت عندهم من انتشار الاسلام فى بلاد الشـــام ، وقد حمله عمـــله هذا على التعرض للاســـلام والاستشهاد بالقرآن الكريم ، وبالحديث على صحة النصرانية ·· ويعرف هذا الرجل بالقديس يوحنا الدمشقى المولود حوالى ٦٧٥ م والمتوفى سنة ٧٤٩ م وهو من اسرة كانت شهيرة معروفة . فكان أبوه فى خدمة الخلفاء الأمويين . وله منزلة وحظوة عندهم ، وكان هو نفسه من المقربين اليهم والمتصلين بهم ، ومن الذين يستشيرونهم فى مهمات الأمور ، وقد يسرت له ثروة ابيه سبيل التثقف بثقافة عالية فتضلع فى اللغة السريانية واتقن اليونانية حتى صار كاتبا بارعا فيها ولعله كان من البارعين أيضا فى اللغة العربية ·

وقد نسب « يوحنا » الاسلام الى الهرطقة Herecy وادعى ان الرسول أخذ علمه من رجل من اهل الكتاب أو من رجل من الهراطقة الأريوسيين Arian وزعم أيضا ان الرسول كان قد نظر فى التوراة والانجيل ، وانه تعلم منها وتنبأ ، كما زعم أن الاسلام انما انتشر بحد السيف لا بالحجج والاقناع وغير ذلك من المفتريات التى لا أول لها ولا آخر · ويعد يوحنا الدمشقى هذا الرائد الذى مهد الطريق للمســـتشرقين المعروفين بتحاملهم على الاســـلام فأكثر ما يزعمونه وينكرونه عنه هو مما كان قد قاله ودونه قبلهم بمايزيد عن ألف عام(١٩) ·

(١٩) تاريخ العرب فى الاسلام (السيرة النبوية) ـ د. جواد على ص ٢١ .

واخيرا يأتى بعض الموتورين من المستشرقين فيوســـع دائرة افتراءاته ولا يكتفى بأن محمدا قد لقنه كاهن مسيحى أو حبر يهودى فقط بل يدعى أن محمدا قد اقتبس من جميع الديانات السائدة على عصره ، ذلك هو « جولدستيهر » المستشرق المجرى الأصل اليهودى الدين الذى يقول فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام »(٢٠) :

ذكر ان محمدا انتخب تعاليم الاسلام من الديانات السائدة على عصره اليهودية والنصـــرانية والمجوسية والوثنية بعد تهذيب وصقل ، ويخزيه الله ، ويخونه التعبير ، وينكشف تجنيه الأســـود فيقول فى الصفحة التالية ٢٥ « بأن محمدا قد أخذ بجميع ما وجده فى اتصاله السطحى الناشىء عن رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذى وجده ، ثم أفاد من هذا دون أى تنظيم » ·

فماذا يمكن ان يقال فى رجل تنعكس الأمور والحقائق عنده على هذا النحو ، ويسرى التعصب فى كل عرق من عروقه ، فيقول ان محمدا ينتخب وينقل ويقتبس تعاليم دينه من الأديان الأخرى بعد تهذيب وصقل ، ثم لا يلبث أن يدعى أن محمدا أخذ ما وجده مهما كانت طبيعة ما وجده وأفاد منه دون أى تنظيم !!

أى تعبير فى اى لغة يمكن اطلاقه على هذا الاسلوب العجيب من التفكير والكلام . أيكفى القول بأنه الضلال والتضليل ، والالتواء العقلى ، والتحزب غير العلمى الذى لا مثيل له ولا شبيه ·

ثم يوغل الرجل فى مفترياته فيقرر « ان الاسلام تضمن فضائل خلقية لاشـــك فيها ، غير ان هذه الفضـــائل منقولة عن الديانات القديمة » · ونحن نعرف ان الأخلاق الفاضلة ليست حكما على دين من الأديان ، بل ان اغلب الفلسفات الانسانية قد اشتملت اصول هذه

(٢٠) ترجمة د. محمد يوسف موسى ، ود. على حسن عبد القادر والاستاذ عبد العزيز عبد الحق .

الأخلاق ، ووصت باتباعها · فلماذا يتهم الاسلام بأنه نقل عن غيره ولا نتهم الديانة اليهودية والنصرانية بأنها نقلت كيانها الخلقى لبنة لبنة من قدماء الاغريق وقدماء المصريين ؟!

ان السواد الذى يصبغ قلوب المستشرقين لا يخف قليلا ولا كثيرا كلما تعرضوا لمحمد ولدينه وهم فى ضغائنهم الغالبة لا يرددون الا التهم التى سبق بترديدها الأعراب البله من أهل الجاهلية « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا · قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض انه كان غفورا رحيما » (الفرقان ٥ و ٦) ·

كل ما هنالك من فرق بين الجاهليين الأوائل ، وأخلافهم من المستشرقين أن أولئك استحيوا من باطلهم وتابوا عنه ، أما هؤلاء فباسم العلم الحر يكذبون ، وباسم البحث المحايد يفترون « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » (البقرة ١٨) ·

وبعد فان العقل والمنطق لا يعرفان حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الاسلامى ، وتشويه لمبادىء الاسلام وثقافته ، واعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله ، وهم كذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذى أداه الاسلام فى تاريخ الثقافة الانسانية · ان المستشرقين جميعا فيهم قدر مشترك من هذا الخصام المتجنى ، والتفاوت ـ ان وجدوا ـ انما هو فى الدرجة فقط ، فبعضهم أكثر تعصبا ضد الاسلام ، وعداوة له من البعض الآخر ، ولكن يصدق عليهم جميعا أنهم أعداؤه ·

وللجهل المركب مضاعفات وخيمة الأثر شديدة الخطر ! والجهل المركب هو نوع من العلم الخطأ ، فعدم العلم بشىء ما جهل بسيط ، والعلم بهذا الشىء على خلاف الواقع جهل مركب ·

ومن مضاعفات هذا الجهل أن تخدع به الأغرار ، وأن تبذل الجهود لاشاعته ومد رقعته ، وأن تزاحم به العلم الصحيح حتى يضيق الخناق على الحقيقة فتزهق وينفسح المجال أمام الباطل فيخلو الجو لتضليله وتضطرب الحياة بوساوسه ·

هذا الجهل الموجه ، أو هذا العلم الموجه عنوان صادق للبحوث التى كتبها عن الاسلام كثير من المستشرقين ، وروجوها بين قومهم ليرضوا ضغائنهم على الاسلام ، ويشيعوا سخائمهم على نبيه الجليل الكريم ·

وكتاب هذه البحوث لم يدخلوا ميدان العلم وبين حناياهم ضمائر سليمة ، بل لم تخامرهم يوما نية التجرد للحق والاخلاص فى طلبه ·

انهم موظفون فى ادارات الاستعمار فهمهم الغالب أن يلوثوا سمعة الاسلام ، وأن يسوغوا المظالم النازلة باهله ، وذلك باظهارهم وكأنهم أتباع رجل مبطل ، ودين مظلم ·

المستعمرون يسخرون قواهم المادية لسحق هذه الأمة ، والمستشرقون يقدمون الأسباب العلمية والتاريخية لهذا العدوان ، بأن يظهروا هذا الدين وأصحابه فى شكل منكر ، يغلفوا أصوله وفروعه بحشد لا آخر له من الأكاذيب ، حتى تبدو وكأنها بقايا خرافات يجب محوها محوا(٢١) ·

هذا وخلاصة القول ان وضع القصة والاهتمام بها ، والترويج لها ـ بالاضافة الى ما تقدم ـ القصد منه أولا وأخيرا الادعاء بأن محمدا كان صنيعة لرجل ، بحيرا أو نسطورا ، كاهن مسيحى أو حبر يهودى ، انه صنيعة رجل أى رجل ·· وليس مبعوثا من الله ، نعم ان الهدف هو القاء ظلال من الريبة على نبوته ، على أمل أن تميع عقيدة المسلمين بنبوة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام ·

ألا ساء ما يفعلون !!!

---

(٢١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ـ محمد الغزالى ص ٥١ و ١٥ و ١٩ ·

اسـلام أبى بـكر

ان المراجع العربية القديمة التى تتحدث عن أبى بكر ، وخاصة قبل اسلامه يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث المروية فيها عسيرا فى بعض الأحيان كل العسر · ثم انها كثيرا ما تثبت روايات هى أقرب الى الخرافة منها الى التاريخ · وقد يجد القارىء فى موازنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعينه على تمحيص الحوادث لكنها تتواتر روايتها أحيانا لحوادث وأمور يقف الانسان منها موقف الحيرة ·

وللمؤرخين الأولين أبلغ العذر عما شاب رواياتهم من اضطراب كان له أثره فى جهود من بعدهم الى عصرنا الحاضر ، فالحوادث الجسام منذ البعثة المحمدية لم تجد من يفرغ لتدوينها تدوينا منظما

باستثناء القرآن الكريم ، وبعض الأحاديث النبوية ، وذلك انهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن كتابة اى شىء سوى القرآن الكريم ـ وخاصة فى بداية الدعوة ـ حتى لا يختلط بغيره من الكلام ، ولانشغال الناس بالدعوة الى دين الله ، وما استتبع ذلك من جهاد ونضال ، لذلك لم يفرغ أحد للتدوين ، وانما تناقل الناس من بعد انباء الحوادث والسير يروونها بعضهم لبعض ، ويتناقلها بعضهم عن بعض . لذلك كان لابد لمؤرخ هذا العهد من تقليب الروايات وموازنتها واقتناص الحقيقة من خلالها . وهذا جهد شاق حاوله الأقدمون على طريقتهم . ومع تقديرنا لجهدهم ، واكبارنا لشأنهم ، فانهم لم يعطوا سيرة الصديق ما تستحق من اهتمام ، ولم يعطونا الصورة التى توضح لنا ما انطوى عليه هذا الانسان الرائع من قوة : تقف النظر ، وتبهر اللب ، وتثير فى النفس غاية الاعجاب . ولعل ذلك يرجع الى ان عظمة أبى بكر هى العظمة الصامتة التى تابى ان تتحدث عن نفسها ، لأنها عظمة الروح ، وعظمة الايمان الحق بالله ، وبما أوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأبو بكر هو عبد الله بن أبى قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة ، يلتقى فى نسبه بالنبى ، ويرتفع الى عدنان .. وأمه « أم الخير » سلمى بنت صخر بن عامر(١) .

ولد أبو بكر بعد مولد النبى عليه الصلاة والسلام بسنتين وأشهر ، بمكة ، وعاش فى طفولته وصباه عيش أمثاله .فلما تخطى الصبا الى الشباب عمل فى التجارة بزازا يبيع الثياب ، فوفق كل التوفيق ، وكثر ماله ، وكان ذا مروءة وأحسان ، وتفضل فى قومه ، قال له ابن الدغنة حين راد خارجا من مكة يريد الهجرة ، فرده وجعله فى جواره : انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر ، وتقرى الضيف . وهذه شهادة صدق على لسان مشرك .

---

(١) اسد الغابة ٣٢٦/٧ .

وكان واحدا من عشرة من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والاسلام ، فكان اليه أمر الديات والمغارم ، فاذا احتمل دية أو غرم مغرما وأخبر قريشا صدقوه وأعانوه عليه ، ولم يكن الأمر كذلك مع غيره ، ولاشك أن هذه الثقة لم تأته جزافا ، لأنه لابد للضامن المقبول أن يكون ذا دراية دقيقة بتفاوت الاقدار والعصبيات ، مع كياسة فى وزن الأمور بميزان العدل الذى يرضى فريقين متنافسين، يساند ذلك علم متبحر بانساب العرب عامة ، وبقريش خاصة ، علم دقيق بما كان فيها من خير وشر .

ابراه من بنى تيم ، وهم قوم اشتهروا بالدماثة والأدب ، وذلك لاشتغالهم بالتجارة التى تقوم على المودة ، وحسن المعاملة ولا تقوم على بسطة النفوذ ، وصولة الوفر والغلبة ، فبنو امية مثلا كانوا يتجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يرسل القوافل الى الشام والى اليمن والى العراق ولكنها كانت قوافل أشبه بالحملات والبعوث ، يعتمدون فيها على الوفر والوفرة ، وليست كذلك تجارة أبى بكر وقومه من أبناء البطون القرشية التى لها شرف النسب فى غير مكاثرة بالعدد والعدة ، ومغالبة بالصولة ودهاء القوة ، كمغالبة الأمويين .

واذا كانت الدماثة والأدب من الصفات الواضحة فى بنى تيم ، فانها أوضح ما تكون فى أسرة الصديق ، فقد كانت العلاقات الطيبة السائدة بينه وبين أبيه وأمه وأبنائه مدى الحياة ، حتى تلك الحادثة العارضة التى ذكرها الرواة عن أحد أبنائه الذى حارب فى صفوف المشركين فى بدر ، والتى أوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال ، ولكنه انصرف عن أبيه برا به ولم يرض لنفسه أن يقاتله ، ولما أسلم قال لأبيه : لقد أهدفت لى يوم بدر فانصرفت عنك ولم أقتلك(٢) . فاذا تجاوزنا هذه الحادثة وجدنا أبوة لا عقوق فيه بعد اهتداء ذلك الابن الى الاسلام كما اهتدى اليه سائر ذويه .

---

(٢) تاريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطى ـ ص ٢٦ .

أقبل أبو بكر بعد أن أصبح خليفة الى مكة معتمرا ، وكان أبوه الشيخ الذى كف بصره جالسا على باب داره ، فقيل له هذا ابنك. فنهض يتلقاه ، ورآه ابنه يهم بالنهوض فعجل نازلا عن راحلته وهى واقفة قبل أن يذيخها وجعل يهتف ويقول : يا أبت لا تقم ! ثم لاقاه واحتضنه وأخذ بقبله ، ولم ينتظر – وهو فى نحو الستين – أن يذيخ راحلته لينزل عنها مخافة على أبيه من مشقة النهوض !

استدعى الخليفة أبو بكر أباسفيان وأخذ يلومه ويصيح فيه لأمر فعله أبو سفيان وانكره ابو بكر . وأبو سفيان يلين له ويسترضيه .

فسأل أبو قحافة : على من يصيح ابنى ؟ فقيل له : على أبى سفيان ! فدنا من الخليفة .. ابنه .. وقال له يلومه : اعلى أبى سفيان تصيح . وترفع صوتك ؟ لقد عدوت طورك ، وجزت مقدارك .

فابتسم ابو بكر والصحابة . وقال لأبيه : يا أبت ان الله رفع بالاسلام قوما واذل به اخرين .

عدوت طورك ، وجزت مقدارك !! لوم وتانيب . لمن ؟ للخليفة ! أبى بكر !! الذى بلغ الستين أو تجاوزها ! ولكنه ابنه . وهو والده له حق الطاعة ، وواجب النصيحة والتوجيه ، وفى كل الاحوال .

كان ابو بكر رجلا رضى الخلق ، رقيق الطبع ، رزينا ، لا يغلبه الهوى ، ولا تملكه الشهوة ، وكان لرزانته وحسن رايه . ورجاحه عقله لا يشارك قومه فى كثير من عقائدهم وعاداتهم ، ذكرت عائشه أم المؤمنين انه لم يشرب خمرا فى جاهليه ولا اسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكه الخمر وادمانهم لها .

وكان ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قريش ياتونه ويالفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه . وتجارته (أو تجاربه) وحسن مجالسته .

كان يعيش فى مكة فى الحى الذى تعيش فيه خديجة بنت خويلد ويعيش فيه التجار النابهون الذين تذهب تجارتهم فى رحلتى الشتاء والصيف الى الشام والى اليمن . ومقامه بهذا الحى هو الذى زاد من روابط الألفة بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن تزوج من خديجة وانتقل الى دارها ، ونقول زاد من الروابط ، فقد كانت العلاقة بينهما قديمة : لأن عبد الله بن جدعان سيد بنى تيم كان نديما وصديقا لعبد المطلب جد النبى (ص) ، ولما مات عبد المطلب ظلت الصلة وثيقة بين أبناء عبد المطلب وعبد الله بن جدعان وقومه من بنى تيم ، فكان يختلف الى دار ابن جدعان أبو طالب والزبير وحمزه والعباس ، وكان أبو طالب يحب ابن أخيه محمدا حبا شديدا فكان يصحبه أحيانا حينما يذهب الى دار ابن جدعان ، كما كان أبو قحافة والد أبى بكر ابن عم عبد الله بن جدعان فقد كان يمضى أوقاتا كثيرة فى دار ابن جدعان ، وكان ابنه أبو بكر يصحب أباه ليصغى الى أحاديث سادات قريش الذين يجتمعون ويسمرون فى دار ابن جدعان ، والتقى أبو بكر بمحمد فى تلك الدار أو فى غيرها من دور شيوخ بنى هاشم أو فى الحرم أو فى المواسم فتوطدت بينهما صداقة متينة .

ذكر المحب الطبرى عن أم سلمة أن أبا بكر كان خدنا للنبى صلى الله عليه وسلم وصفيا له(٣) . وكان معه حين ذهب مع عمه أبى طالب الى الشام(٤) :

تزوج أبو بكر صدر شبابه من قتيله بنت عبد العزى ، فولدت له عبد الله واسماء . واسماء هذه التى لقبت من بعد ذات النطاقين ، وتزوج بعد قتيله : أم رومان بنت عامر التى كانت أرملة أحد أصدقائه عبد الله ابن الحارث بن سخبره ، وذلك ليحفظ بيت صاحبه

---

(٣) الرياض النضرة فى مناقب العشرة ٥٢/١ .

(٤) مروج الذهب وتاريخ الطبرى وابن خلدون .

وحليفه ويتولى تربية ابنه الطفيل بن عبد الله بن الحارث(٥) ، ثم تزوج بالمدينة من حبيبة بنت خارجة ، ثم من اسماء بنت عميس ارملة جعفر بن أبى طالب فولدت له محمدا ٠

قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن ابى قحافة ، ما عكم عنه حين ذكرته له وماتردد فيه »(٦) ٠ وأخرج ابو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماكلمت فى الاسلام أحدا الا أبى على . وراجعنى الكلام الا ابن أبى قحافة . فانى لم أكلمه فى شىء الا قبله واستقام عليه »(٧) ٠

فلم سهل اسلام الصديق هذه السهولة التى لم تؤثر على أحد غيره ؟ فكان أول رجل يؤمن بالله ورسوله !

يقول بعض الرواة وكتاب السيرة : ان سبب مبادرته الى التصديق ما علمه من دلائل نبوته (ص) وبراهين صدق دعوته قبل دعوته ، ولرؤيا رآها قبل ذلك : رأى القمر نزل الى مكة فدخل فى كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه فى حجره ، فقصها على بعض أهل الكتاب ، فعبرها له بانه يتبع النبى المنتظر الذى طال زمانه ، وأنه يكون من أسعد الناس به ، ولعل هذا الذى من أهل الكتاب هو « بحيرا » وأن بحيرا لما سمع الرؤيا من أبى بكر قال له : ان صدقت رؤياك فانه سيبعث نبى من قومك تكون أنت وزيره فى حياته ، وخليفته بعد مماته ٠

---

(٥) جمهرة انساب العرب لابن حزم ـ واسد الغابة ٣٣١/٧ ٠

(٦) صحيح البخارى باب ٨ من المناقب ، والسيرة لابن هشام ٢٥٩/١ ، وعيون الاثر لابن سيد الناس ٩٥/١ ٠

(٧) تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ص ٢ ٠

وتقول « السيرة الحلبية » أن أبو نعيم أخرج عن بعض الصحابة أن أبا بكر آمن بالنبى (ص) قبل النبوة ٠ أى علم أنه النبى المنتظر لما مر على بحيرا الراهب ، ولما سمعه من شيخ عالم من الأزد قد قرأ الكتب نزل به أبو بكر فى اليمن فقال له : أحسبك حرميا ، فقال أبو بكر نعم ، فقال له : أحسبك قرشيا ، قال نعم ، فقال له أحسبك تيميا قال نعم : قال له بقيت لى فيك واحدة ، قال وماهى ؟ قال له : تكشف لى عن بطنك فقال له : لا أفعل أو تخبرنى لم ذلك ، فقال : أجد فى العلم الصحيح الصادق أن نبيا يبعث فى الحرم يعاونه على أمره فتى وكهل ، فأما الفتى فخواض غمرات ، ودفاع معضلات ، وأما الكهل فأبيض نحيف ، على بطنه شامة ، وعلى فخذه اليسرى علامة ، وما عليك أن تريني ماسألتك ، فقد تكاملت فيك الصفة ، فقال أبو بكر : فكشفت له عن بطنى فرأى شامة بيضاء أو سوداء فوق سرتى ، أى ورأى العلامة على الفخذ الأيسر ، فقال أنت هو ورب الكعبة ، قال أبو بكر : فلما قضيت اربى من اليمن أتيته لأودعه ، فقال : أحافظ عنى أبياتا من الشعر قلتها فى ذلك النبى ؟ قلت نعم ،فذكر له أبياتا ، قال أبو بكر فقدمت مكة وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاءنى صناديد قريش كعقبة بن أبى معيط ، وشيبة بن ربيعة ، وأبى جهل وأبى البحترى ، فقالوا : يا أبا بكر يتيم أبى طالب يزعم أنه نبى ولولا انتظارك ما انتظرنا به ، فاذ قد جئت فأنت الغايةوالكفاية ، أى لأن أبا بكر كان صديقا له ، قال أبو بكر فصرفتهم على أحسن شىء ، ثم جئته عليه الصلاة والسلام فقرعت عليه الباب ، فخرج الى وقال لى : يا أبابكر انى رسول الله اليك والى الناس كلهم ، فآمن بالله ٠ فقلت وما دليلك على ذلك ؟ قال : الشيخ الذى أفادك الأبيات ، فقلت ومن أخبرك باحبيبى ؟ قال : الملك العظيم الذى يأتى الأنبياء قبلى ٠ قلت : مد يدك فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله ، قال أبو بكر : فانصرفت وما بين لابتيها أشد سرورا من رسول الله (ص) باسلامى، وفى لفظ أشد سرورا منى باسلامى ، ولا مانع من صدور الأمرين منه رضى الله عنه ، ويحتاج للجمع بين هذا وبين ماتقدم من أنه كان مع حكيم بن حزام يوما اذ جاءت مولاة لحكيم فقالت ان عمتك خديجة

تزعم فى هذا اليوم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى عليه السلام . فانسل أبو بكر حتى أتى النبى (ص) فسأله عن خبره فقص عليه قصته المتضمنة لمجيء الوحى له ، وأخبره بأن الله أرسله ، فقال صدقت بأبى وأمى ، أنت وأهل الصدق أنت ، أنا أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله . فسماه يومئذ الصديق بوحى من الله ، ولما سمعت خديجة رضى الله عنها مقالة أبى بكر رضى الله عنه خرجت وعليها خمار أحمر فقالت : الحمد لله الذى هداك يا ابن أبى قحافة . وقد جاء فى تفسير قوله تعالى : والذى جاء بالصدق وصدق به أن الذى جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى صدق به أبو بكر .

هذا كلام نجده فى السيرة الحلبية ، والسيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زينى المشهور بدحلان ، والرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى . كما يذكر الزمخشرى فى « خصائص العشرة » ص ٤٢ : أن مذام أبى بكر رضى الله عنه كان يشبه الوحى ، كما روى : أنه رأى رؤيا فقصها على الراهب وهو بحيرا بالشام . فقال ان صدقت رؤياك فانه سيبعث نبى من قومك وتكون وزيره وخليفته بعد وفاته . فأسرها الى أن بعث رسول الله (ص) فجاءه فقال له : ما الدليل على ما تدعى ؟ فقال : الرؤيا التى رأيتها فى الشام . فعانقه وقبل يده وقال « أشهد ألا اله الا الله وأشهد أنك رسول الله » .

وتتكرر الرواية بشكل أو بآخر فى كتب أخرى مع اختلاف فى اللفظ أو فى المكان فمرة فى الشام ومرة فى اليمن ، ومعبر الرؤيا بحيرا مرة وورقة بن نوفل مرة ، ورجل قرأ الكتب مرة ، الا أنها ـ للأسف ـ تتفق على أن أبا بكر قال للرسول : وما دليلك ؟ وهذا السؤال يتناقض ويتعارض مع الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم الذى ذكرناه ، ويصبح السؤال الذى طرحناه باقيا دون جواب « لم سهل اسلام الصديق هذه السهولة التى لم تؤثر عن أحد غيره ، فكان أول رجل يؤمن بالله ورسوله » .

ولعلنا نختصر الطريق الى جواب هذا السؤال ـ كما يقول العقاد ـ اذا نحن سألنا عن الموانع دون الاسلام ، قبل أن نسأل عن الموجبات ، لأننا اذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها ، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هينة التذليل بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير فى البحث عن الموجبات ، وعرفنا أنه « لا مانع » فعرفنا أنه لا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة ، فما الذى كان يمنع أبابكر أن يجيب دعوة الاسلام ؟ بل ما الذى يمنع انسانا من الناس ـ كائنا من كان ـ أن يجيب الدعوة الى عقيدة جديدة ؟

يمنع الانسان أن يصغى الى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة ، تجتمع وتتفرق ، ويبتلى الرجل الواحد بها جميعا ، وقد يبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الاصغاء والاجابة .

يمنعه من اجابة الدعوة : غطرسة ، أو سيادة مهددة ، أو مصلحة فى بقاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن مغلق لا يتفتح للفهم والتفكير ، أو مغامسة للشهوات تحبب اليه أن يستديم الى العرف الذى يبيحها ويسمح بها ويعزف عن الهداية التى تحظرها وتقف فى سبيلها ، أو تعصب غضوب للعقيدة التى درج عليها ودان بها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة فى ابناء قومه سواء منهم المتعصبون لها والقابلون لها على المجاراة والمداراة ، أو جبن يمنعه أن يخرج على المألوف ، ويتصدى لسخط الساخطين وان تبين طريق الاستقامة والسداد ، أو ايغال فى الشيخوخة يصد الانسان عن كل تغيير ، أو حداثة سن تجعله تابعا لغيره فى الرأى والسلوك غير مستقل التفكير والتصرف ، أو ذلة مطبوعة تلحقه بمن أذله وبسط سلطانه عليه .

فالغطرسة خله تابى على صاحبها أن يستمع الى قول ، أو يصيخ الى دعوة أو يتنزل الى متابعة انسان ، ترفعا عن الاصغاء قبل أن يهديه الاصغاء الى موافقة أو انكار ، وتعظم على نفسه أن

يغلبه منافس على الشرف والعزة فقد كان الوليد بن المغيرة مثلا يزعم انه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ويقول : أينزل على محمد واترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك ابن مسعود ابن عمرو الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين !! وقد أنزل الله فيهما « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجـــل من القريتين عظيم » (الزخرف ٣١) ٠

والسيادة المهددة توحي الى صاحبها كراهية التحديد ، لانه يحس بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة ان شاع ما جدده بين الناس ، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي قامت عليه وقيام الجديد الذي نسخه وعفاه ٠ فقد كان ابو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ابن أخي الوليد يقول : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشـــرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه(٨) ٠

والمصلحة في حالة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محبا لتلك الحالة حبه للمنفعة ، كارها لتبديلها كراهته للخسارة ، ميالا الى محاربة الدعوة الجديدة قبل أن يبحث فيها ويتعرف وجـــوه الخير الذي قد يصيبه منها ٠

والذهن المغلق يجهل ما يقال ، ويعادي ما يجهل ، وينفر من كل مايشق عليه ، وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئا على وجهه السوي ، أو يتهيأ للفهم بأية حال ٠

ومغامسة الشهوات تبغض الى المرء سلوانها والاقلاع عنها ، وتقرن عنده دعوات الاصلاح والاستقامة بشؤم التنغيص والتكدير ، فيتبرم بها وينزعج لها ، كما ينزعج النائم المستغرق أيقظته من نومة لذيذة قد استراح لها ٠

---

(٨) عيون الأخبار لابن قتيبه ٣٦/١ ، والأغاني ٦٤/١٨ وغيرها ٠

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يثيره أن تمس عقيدته كما يثور لحماية الحوزة ، أو الذود على الآباء والأجداد ، لأنه يحسب عقيدته ملكا له ولآبائه يرد عنها من يهجم عليها ، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه ٠

والعقيدة اذا كانت قوية السلطان غلبت عزتها على عزة العقل والفؤاد فأصر عليها من كان خليقا أن يعافها ويعرف عيبها لو دعى الى تركها وهي تتداعى وتتزعزع وتؤذن بالزوال ٠

والجبن يجعل صاحبه يخاف أن يجهر بالحق ، ويبتعد به عن الطريق الذي يقوده الى الاصغاء فالايمان ٠

والشيخوخة عدو لكل طارق جديد ٠

والحداثة بين طيش يدعو الى التمرد وطاعة تدعو الى متابعة الأولياء ٠

والذلة حجاب بين الذليل ونفسه يحجبه وراء من أذله ، فلا تصل اليه الدعوة الا من تلك الطريق ٠

هذه هي موانع الاصغاء الى كل دعاء جديد ، أو هذه أعم الموانع التي تحول بين معظم الأسماع والاصغاء الى ذلك الدعاء ٠

ومن الحقائق المؤكدة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون في أبي بكر الصديق بل انه كان براء منها جميعا ، أو كان كأبرأ الناس منها ٠

فلم يكن متغطرسا ، بل كان مشهورا بالدعة والســـماحة ، سريعا الى التأثر والى مشاركة البائس في بؤسه ، والضـــعيف في ضعفه ، مألفا لقومه كما قال واصفوه ، محببا ، سهلا ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وتجاربه (أو تجارته) وحسن مجالسته ، ولعلنا لا نجد في طول التاريخ وعرضه

من يبلغ به التواضع الى الحد الذى بلغه ابو بكر ، فقد كان يحلب للحى اغنامهم ، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحى : اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها ابو بكر فقال : بلى ، لعمرى لأحلبنها لكم وانى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه · فكان يحلب لهم لأكثر من ستة أشهر من خلافته ·

ولم يكن مهددا فى سيادة مضروبة على أعناق الناس ، فكان من ذوى الشرف فى قريش ، ولكنه لم يكن من قبائلها السـاطية المسيطرة التى تستطيل بالبغى والطغيان ، كان من تيم وهى بيت قرشى معدود ، ولكنه لم يمنع أبا سفيان أن يقول لعلى بن أبى طالب يستثيره حين بويع أبو بكر بالخلافة « ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها » ! وقال أحد الشعراء :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

وقد يكون أبو سفيان مبالغا او موتورا وكذلك هذا الشاعر ، ولكنها ليست من أعز القبائل وأكثرها ثراء ، واقواها نفوذا على كل حال ، ومع ذلك فكانوا يصفونهم بأنهم « مصابيح الظلام » ·

ولم تكن لأبى بكر مصلحة فى دوام الجاهلية ، لأن عمله فيها كان ضـمان الغارم والديات ، وربما كان هذا العمـل أقرب الى الخسارة منه الى المنفعة والغنيمة ، فلا أسف عليه ، أما التجارة فلا خوف عليها من الدعوة الجديدة ، وصاحبها الداعى اليها تاجر يبيحها ويزاولها ·

ولم يكن مغلق الذهن ، ولا وصفه أحد بهذه الصفة من محبيه او شانئيه ، بل كان معروفا بالذكاء ، يلمح المعنى البعيد فيدركه ، ويسبق الحاضرين الى فهمه ، كما حدث غير مرة والنبى (ص) يتحدث او يعظ الناس ·

ولم يكن محبا للشهوات ، بل كان يعف عما كان يمارسه الناس حتى ذوى الاقدار والأخطار منهم ، فلم يشرب الخمر ، ولم يشتهر

بوصمة يغيبه بها من أسرعوا الى معاتبته يوم هجر عقيدة الجاهلية ودخل فى دين الاسلام ·

ولم تكن عبادة الأوثان عقيدة مكينة السلطان فى عهد الدعوة المحمدية ، « بل كان العربى ضعيف الايمان بها ، ولذلك لم يخلق حولها الشعائر الدينية المفروضـة والموجودة عند غير العرب من الامم ، وكانت الحياة الدينيه فى بلاد العرب تتصف بالفوضى تتعدد الأديان والمذاهب ، وكانت الوثنية قد فقدت معناها الاول وقوتها السالفة ، ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها ، فاصبحت مجموعة من الخـرافات والأوهام ، ولكن العـرب وان فطنوا لحقيقة هذه الاوثان ، فقد احتفظوا بها كعادة وتقليد متوارث عن الاسلاف ، وللفائدة التجارية التى كانت تدرها الاوثان على أهالى مكة ، وقد وصف المؤرخ « ديتلف نلسن » فى كتابه « التاريخ العربى القديم » (ص ١٧٧) الأصنام بانها الهة عصر الاضمحلال والتدهور الذى سبق الاسلام(٩) ، وفقدت اسميتها ، ولذلك فقد اهملها كثير من الناس، وبحث اخرون عن غيرها ، فمنهم من عبد النجوم والكواكب كالشمس والقمر والشعرى وعطارد وغيرها ، ومنهم من عبد النبات والطير والحيوان(١٠) · وفضل بعضهم عليها المسيحية او اليهودية ، بل ان البعض قد عبد الها واحدا وهم الاحناف(١١) · وعلى هذا لم يكن ابو بكر متعصـبا للجاهلية وعباداتها ، بل لعله كان مزدريا لها مستخفا بالأصنام وبأحلام عابديها ، واذا صح ماروى عنه فهو لم يسـجد لصنم قط ، وقال : لما ناهزت الحلم أخذ ابو قحافة بيدى وانطلق بى الى مخدع فيه أصنام ، فقال : هذه الهتك الشم العوالى، وخلانى وذهب ، فدنوت من الصنم وقلت : انى جائع فأطعمنى ! فلم يجبنى · فقلت انى عار فاكسنى ! فلم يجبنى · فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه(١٢) ·

---

(٩) التاريخ الموحد للأمة العربية ـ د. على حسنى الخربوطلى ص ٣٥ .
(١٠) ادب التاريخ عند العرب ـ د. عفت الشرقاوى ١٦٢/١ .
(١١) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ص ١٠٠ .
(١٢) انباء نجباء الأبناء ـ ابن ظفر ص ٤٢ .

ولم يكن الصديق بالجبان ، ولا بالشجاع الذى نصيبه من الشجاعة قليل بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعدودين فى الجاهلية والاسلام ، وتبدو شجاعته من الحاحه على النبى أن يظهر بالمسلمين فى مسيرة فى نواحى المسجد وهم دون الأربعين عددا ، ومن قيامه خطيبا يجهر بالدعوة الى الله ورسوله والمشركون متربصون ثائرون ، فيثبون عليهم يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم اهانة مع الضرب والايذاء ، وتصدى عتبه ابن ربيعة لأبى بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين على وجهه حتى ورم ، وخفى على الناظر اليه مكان انفه ، وتسامع اهله من بنى تيم فاقبلوا يتعادون ويجلون المشركين عنه ، ثم حملوه الى بيته وما يشكون فى موته ، وصاح منهم صائحون فى المسجد : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة . ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب · فكان أول ما فاه به وهو فى تلك الحال : مافعل رسول الله ؟ فلاموه وعنفوه وسألوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئا يرد اليه نفسه ، فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يطمئن على رسول الله ، لقد كان من أشجع الشجعان : ثبت مع النبى فى كل موقف وكل موقعة حين ولى من ولى وأبطأ من أبطأ ، وغامر بحياته فى حروب الردة وله مندوحة عن خوضها ، ولم يذكر فى أخباره خبر نكول أو خوف على حياة أو مال ·

ولم يكن شيخا فانيا متابعا لكل قديم ، ولا حدثا صغيرا تطيش به رعونة الشباب حين دعاه محمد الى دينه وهداه ، بل كان فى سن يكتمل فيها الطبع وتتم السجية ، كان رجلا ناضجا فى بسطة الرجولة يفقه الأمور ، ويزن القول بفهم نافذ ، وحكم صادق ، وعقل راجح ·

تلك جملة الموانع التى تحول بين الانسان وقبول الدعوات الجديدة الى الاصلاح ، وكلها هنا غائبة عن أبى بكر ، فهل معنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الاسلام عقبات تصده عن وروده ، وأن طريقه اليه كانت ممهدة مفتوحة يخطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يتبعها بخطوات !؟

ان رجلا كأبى بكر عرك الدنيا لا يمكن أن يغيب عنه نتائج الخروج على دين الجماعة الى دين جديد لا عهد للناس به ، يسفه أحلامهم ، ويسب الهتهم ، ويهدد كثيرا من مصالحهم ، ويزلزل الأرض تحت اقدامهم ، انه الهول الذى ليس بعده هول ! هو تقطيع العلاقات الوثيقة بينه وبين الناس التى كانت تسير كأحسن ما تكون العلاقات ، وما يعقب ذلك من كساد التجارة التى هى مصدر حياته وعليها معاشه ، وتبدل الانس وحشه ، والمودة عداوة ، وسقوط المكانة ، وضياع الهيبة ، والتعرض للمهانة ، والايذاء فى النفس والمال ، وليست له منعة فى قبيلة لها سطوة وسلطان · هى حياته كلها اذن من جميع وجوهها تتعرض للانقلاب رأسا على عقب باقدامه على الاسلام · ثم هو أول داخل فى الدين ، فهو لا ينتظر أن يجد فيه رفاقا يبذلون له الحماية ، ويكفلون له المنعه ، ويعوضونه عما سيفقده ، انما هو يترك الدعة الى الاضطراب ، والأمن الى الهول ، والكرامة الى الويل ، ورواج التجارة الى الكساد والمقاطعة ·

ان الأمر لم يقتصر على قلة الموانع فى طريق الصديق الى الاسلام ، بل انه علاوة على ذلك قد كانت له خلائق عاملة تدفعه وتقربه الى العقائد القويمة ، وتجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا حاجة به الى أكثر من ذلك ليفرق بين سنن الجاهلية وسنن الاسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والاعراض ، وماهو حقيق بالحرص عليه والاسراع اليه ·

كان الرجل صادق الطبع ، مستقيم الضمير ، وعرف باسم الصديق اذ عرف الناس فيه الصدق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالاسلام ، لأنه كان يضمن المغارم والديات فيصدقونه ، ويعتمدون على وعده ، ويركنون الى وفائه ، وقد يكون هذا الوصف لتصديقه النبى فى كل ما أخبره به ، وسواء كان هذا أو ذاك فالذى لا خلاف فيه أن هم كانوا يصدقونه لأنه كان أهلا للتصديق ·

ومن كان على هذا الصدق فى الخليقة فلا حجاب بينه وبين دعوة اصلاح ، وليس من شأنه أن يصم أذنيه عن قول صادق . ودعاء مستقيم ، ولو كلفه ذلك غاية العناء .

ثم انه كان مطبوعا على الحماسة لما يعتقد فيه الحق والخير والصلاح ، يبدو ذلك فى اسراعه الى التبشير بالاسلام ساعة أن اهتدى اليه ، فدخل فى الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبى (ص) وأعظمهم أثرا بعد ذلك فى قيام الدولة الاسلامية : كعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وجعل لا يهدأ ولا يستريح حتى أدخل فى دينه والديه وذويه .

وتبدو هذه الحماسة الشديدة من اتخاذه مسجدا لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق ، يسمعه حين يقرأ كل عابر ، ويستاء المشركون منه ، ويتوعدونه فلا يفزع من وعيد . ولما جاءه الرجل الذى أجاره من المشركين على أن يكتم اسلامه وعبادته وخيره بين الكتمان أو رد الذمة اليه لم يتردد فى رد الذمة وقال له : فانى أرد جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل .

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة اليه ، والحماسة له ، غير عجيب أن يسرع الى العقيدة الجديدة هذا الاسراع ! دون انتظار ودون تردد ! برغم أن العقيدة يومئذ كانت مضموناتها مجملة بعيدة عن التفصيل ، ويحتاج من يعتنقها فى ذلك الطور حتما الى ثقة بالداعى اليها ـ وهو محمد (ص) ـ تدعوه الى قبول هذه العقيدة الجديدة .

وخارج نطاق أهل بيت محمد الأقربين جدا لم يجبه من قرابته أحد على مالهم به من ثقة كبيرة ، فليس يكفى اذن القول بأن محمد ابن عبد الله كان « الأمين » الذى تعرف قريش صدقه وأمانته وكريم أخلاقه، وكان ذوو قرابته من بنى عبدالمطلب ـ فضلا عن بنى هاشم ـ أعرف به من قريش ، ولم يكن هذا كافيا عندهم كى يستجيب أى أحد منهم للنبى كما فعل أبو بكر !

فلابد اذن من سبب فوق هذا السبب المألوف فى تعليل الثقة الدافعة لأبى بكر الى التصديق ، القاضية على الموانع ! .

ولابد لكل شىء يحدث فى الكون من سبب كاف ، أما الأسباب التى دون الكفاية فلا تحدث النتيجة التى نبحث لها عن تعليل وتفسير .

فما هو اذن هذا السبب الكافى ليكون أبو بكر أول من أسلم مفتتحا بل مقتحما(١٣) طريق الأهوال ، وليكون اسلامه اندفاعة لا تعرف التردد والمراوحة بين عوامل الاحجام والاقبال ؟! .

دواعى الثقة الشائعة فى قريش بمحمد بن عبد الله غير كافية لهذا التفسير والا لكانت كافية لدخول أكثرية قريش فيما دخل فيه أبو بكر وعلى نحو ما دخل أبو بكر !

لابد اذن من سبب فوق الثقة وأقوى منها .

فأى شىء عساه يكون هذا السبب ؟ وبأى اسم من الأسماء المعهودة فى شمائل الناس ندعوه ؟

يجيب على هذا التساؤل العقاد فيقول عنه انه الاعجاب بالبطولة ! فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله ، ثم يثق به ، ثم يرتقى بالثقة الى ما فوقها ، وما هو أمكن منها . لأن الثقة اقتناع بالشخص تأسيسا على سوابقه فى التعامل ، واستنادا الى وثيقة تدعو اليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها ، أما الاعجاب فهو الرغبة فى الثقة ، وكراهة التحول عنها ، هو البحث عن الثقة والتذاذها اذا وقف الواثقون عند الانتظار أو مجرد التأمين والموافقة بعد الانتظار .

---

(١٣) انظر « ابو بكر حوارى محمد » للدكتور نظمى لوقا .

وأبو بكر لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العتاة المتجبرين ، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء ، ولم يعجب ببطل تروعه منه جلبة الصيت الفارغ ، والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يزدهى بالوفر والثروة أو بالعصبة أولى القوة والبأس ·

لا · لم يكن هذا هو الذى راعه من بطولة محمد صلى الله عليه وسلم لأن محمداً لم يكن ذا سطوة ، بل كان عرضه للأذى من المسلطين عليه ، ولم يكن من أصحاب الزخرف والخيلاء ، بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء ، ولم يكن وراءه أحد يتبعه بل كان وحيدا يطرده الأكثرون ·

انما البطولة التى أعجب بها أبو بكر هى البطولة التى ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس الانسانية ، هى بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة . وهى بعد هذا ، وفوق هذا ، بطولة الفداء ، يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء ·

تلك هى بطولة محمد ··

وقد تواترت أنباء مختلفة لصداقة أبى بكر للنبى (ص) قبل الدعوة المحمدية ، منها خبر أورده المحب الطبرى عن أم سلمة ، وكذلك المسعودى والطبرى « بانه كان خدنا للنبى وصفيا له فى الجاهلية ، وموضع سره » ، ويختلف بعض المؤرخين وخاصة من الأوربيين فيستبعدونها ، الا أن الدليل الذى يغنى عن وثائق التاريخ أن أبابكر كان باتفاق الاقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله ، ولن يكن ذلك بغير معرفة سابقة بين الرجلين حببت الى النبى (ص) أن يبدأ به ، ويترقب منه الاصغاء اليه ، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق الى الاسلام أن يكون أبو بكر معروفا بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفا بصفاته لأبى بكر ، فلما سمع دعوته سارع الى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبعه ، ونقاء سيرته ، وبلاغة حديثه ، وأعانه على التفرقة بينه وبين خصومه والتمييز بينه وبين

منكريه ، أنه كان نسابه قريش لا يفوته مغمز من مغامزهم قديمها وحديثها فى الأنساب والأخلاق ، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك براء ·

ومحمد صلى الله عليه وسلام لم يأت الناس بحديث عن شىء من قبل ما ألفوا التعامل فيه معه أو مع سواه ، فما هو بحديث تجارة ، ولا بحديث رواية أو شىء كسائر ما يرويه الرواة ويشاهده المشاهدون ، ولكن الذى يرويه استجاش عاطفة أبى بكر ، واستولى على مجموع نفسه حين نبذ كل شىء وبايعه على الايمان بدعوته ومناصرته ·

فالسر اذن ـ أو بعض هذا السر على الأقل ـ بالاضافة الى الثقة والاعجاب بالبطولة ، فيما كان يجول بنفس أبى بكر قبل أن يلقاه محمد بما لقيه به : فقد كان أبو بكر على يقين بلاشك من ضلال الوثنية ، ولكنه كان هو نفسه تائها حائرا لا يدرى أين يكون الحق والهدى والنور ، وكان مشوقا أشد الشوق الى الهدى ، ظمآنا أشد الظمأ الى الحق ! عهيأ أكثر ما يكون التهيؤ الى من يأخذ بيده الى النور !

وليس هذا فحسب ، ولكن الأمر يتعلق أيضا بالبشير الذى أهتدى بهداه الى النور ، ولا يمكن أن يكون تصديقا بمجهول ، أو معروف على المستوى المألوف من التعارف بين أهل قرية واحدة ·· فقد كان أولى بذلك ـ لو أنه كان كافيا ـ قومه من بنى عبد المطلب ·

ولكن ماذا يدريه أن هذا الذى يحمله اليه ذلك الصديق المعروف اليه هو النور المنشود ، وما سمع منه الا شيئا قليلا ، وما عرض عليه الا قبسا !

هو اذن شىء أكثر من ثقة المعرفة أو ثقة القرابة ، أو الاعجاب بالبطولة ، انه شىء فوق هذا كله ، انه ثقة التآلف الروحى الذى يسقط جميع الحواجز ولا يحتاج الى أسباب ومعاذير ·· انه نوع سام من الحب !!

حب يندر أن يقع بين الأصفياء من بنى البشر ، ولكنه حين يقع يشع نورا يميزه من سائر العلاقات المألوفة ·

كان أبو بكر يملؤه هذا الحب الذى لا يستطيعه ولا يرقى اليه الا أمثال أبى بكر قبل الدعوة بسنين لا شك ، لأن هذا الحب هو الذى يمكن له وحده أن يفسر « انفتاح » قلب أبى بكر بهذه السهولة وارتماءه فى أحضان العقيدة الجديدة ·

وهكذا يبين لنا فى اسلام أبى بكر أن الدعوة المحمدية دعته اليها بأسبابها المعقولة فاستجاب اليها باسبابه المعقولة التى توائمه أصدق المواءمة ، ولا تحوج أحدا من المعللين والمفسرين الى الخوارق الكذوبة ، والعلل الواهية ، والتفاسير السطحية ، والرؤى الأسطورية ، ونبوءات الرهبان !!

كان الصديق رضى الله عنه اذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالاسلام ، سريعا الى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به ، وتليق بالدعوة المحمدية . وكتب له فى اللحظة الأولى أن يكون ثانى اثنين حين يكون النبى هو أول الاثنين : ·· فكان ثانى اثنين فى الاسلام . وثانى اثنين فى غار الهجرة ، وثانى اثنين فى العريش التى آوى اليها النبى يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثانى اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب الى النبى فى العسر واليسر ، وفى السر والجهر ، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين ·

ومن اللحظة الأولى وهب للاسلام كل ما يملك انسان أن يهب من نفسه وماله وآله وبنيه ، فأخذ أمه الى النبى لتسلم على يديه وهو بين الحياة والموت بعد أن اعتدى عليه المشركون اذ جهر بالدعوة عند المسجد ، وجاءه بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد كبر سنه ووهن عظمه ، وحمل ماله كله وهو يهاجر فى صحبة النبى يؤثر به الدين على الآل والبنين ·

قال بعض الرواة أن النبى وجه اليه الدعوة خاصة ، وقال آخرون انه عليه الصلاة والسلام قصد الناس بالدعوة العامة فعلم أبو بكر فجاءه يسأله :

يأأبا القاسم : ما الذى بلغنى عنك ؟

فسأله النبى : ومابلغك عنى يا أبابكر ؟

قال : بلغنى أنك تدعو الى توحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله ·

قال : نعم يا أبابكر ان ربى جعلنى بشيرا ونذيرا ، وجعلنى دعوة ابراهيم ، وأرسلنى الى الناس جميعا ·

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذبا ، وانك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك ، وحسن فعالك . هد يدك فانى مبايعك ·

والصدق ، والأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الفعال : صفات يفهمها أبو بكر ، لأنه يحبها ، ويتصف بها ، ويحب أهلها ، فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال ، وتلك أقرب الآيات الى لبه وقلبه ، وهى أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين المصدقين . فمن الجائز أن تخدعنا الخوارق وليس الجائز أن يخدعنا من يصدق ويبر ، ويؤدى الأمانة ، ويستقيم على سواء الطريق فى فعاله وخصاله ·

وأصبح الاسلام منذ تلك اللحظة دينا عند أبى بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات ، أصبح عنده غنيمه يضن بها المرء

من حياة أو آل أو ذرية أو مال ، ولو قاسه بمقياس دنيا لقد كان الاسلام بلية عليه لا يطلبها عاقل ، ونكنه قاسه بمقياس دين فعلم أنه اربح الرابحين وأرشد الراشدين ، طلبه دينا وكفى ، فصبر فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا ، ويرفض مجرد أن يقترب منه ٠

يوجز الأمر كله صاحب كتاب « أشهر مشاهير الاسلام » فيقول : تجسم أبو بكر رضى الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدغل ، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد ، وطهارتها من عمى البصيرة عن ادراك الصواب والمماراة فى الحق ، فقامت لديه الحجة على الشرك ، وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان ، فبادره بالدعوة فلم يتردد وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد ٠ ولهذا فقد قال عليه الصلاة والسلام « مادعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد ، الاما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم حين ذكرته له وما تردد فيه » ٠

رضى الله عنك أبا بكر ، وجزاك أوفر الجزاء على ما أديته الى الاسلام من خير لا يعادله خير ، وسلام عليك يوم ولدت ، ويوم أسلمت ، ويوم ناصرت نبيك وحبيبك ، ويوم بويعت بالخلافة ، ويوم ثبت الدين ، وأقمت دعائمه ٠

يونيو ١٩٨٧ — أصلان عبد السلام حسن

القاهرة ــ روض الفرج

شارع عبد القادر طه ٢٨

ت : ٦٥٠٤٨٥

الفهـــرس

شكر واجب ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٣

تمهيد ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٥

كيف ومتى كتبت السيرة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ١٣

رضاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٢٣

رواية شـــق الصـــدر ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٢٩

شد الأزرار وستر العورة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٤٩

سن السيدتين خديجة وعائشة رضى الله عنهما ٠ ٠ ٠ ٠ ٥١

ســـرية الدعوة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٦٣

الهجـــــرة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٦٩

قصة بحيرة الكاهن ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٧٧

اسلام أبى بكر ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ١١٣

رقم الايداع ٨٨/٧٣١٨
الترقيم الدولى ٥ ـ ١٩٥٥ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصـــــويبات

حدثت بعض الأخطاء ، وقد وفقنا الله أن عثرنا عليها ، و

يلى التصويبات :

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	الأخير	نحق	نحن
٦٥	١٨	لنسفعن	لنسفعا
٦٥	١٨	ناضية	ناصية
١٠٠	٢٣	ورسلا قصصناهم	ورسلا قد قصصنا
١٠٠	٢٤	عللیك	عليك